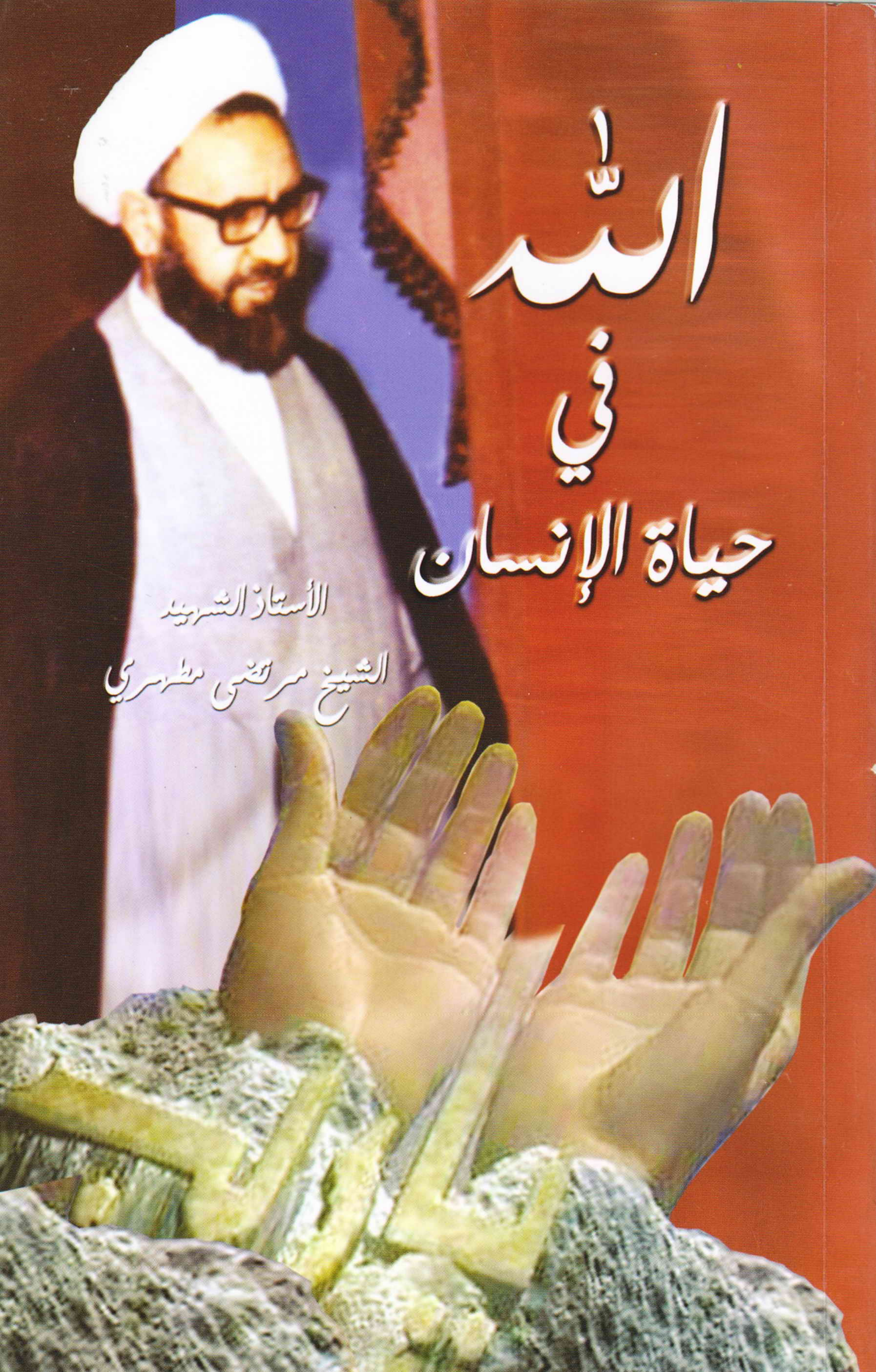

الله
في
حياة الإنسان
الأستاذ الشهيد
الشيخ مرتضى مطهري



الله في حياة الانسان

الله

في حياة الانسان

مرتضى مطهري

دار الهادي
بيروت - لبنان

الطبعة الثالثة

١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م



هاتف: ٥٥٠٤٨٧/٠١ - ٠٣/٨٩٦٣٢٩ - فاكس: ٥٤١١٩٩ - ص.ب: ٢٨٦/٢٥ غبيري - بيروت - لبنان
Tel.:03/896329 - 01/550487 - Fax: 541199- P. O. Box: 286/25 Ghobeiry - Beirut - Lebanon
E-Mail: daralhadi@daralhadi.com - URL: http: //www. daralhadi.com

- المحاضرة الأولى -

موضوع بحثنا، هو **(الله في حياة الإنسان)**. وقبل التطرق إلى الموضوع، لا بُدَّ لنا من ذكر مقدمة ضرورية له.

ان التوحيد يكون على نوعين:

١ ـ توحيد نظري

٢ ـ وتوحيد عملي

ولتوضيح هذا الموضوع، سنتطرق إلى بيان احد المصطلحات الشائعة بين المتكلمين.

التوحيد الذاتي:

يقسِّم العلماء المسلمون، التوحيد إلى أربع مراحل: فالمرحلة الأُولى هي التوحيد الذاتي، ولكن ما معنى التوحيد الذاتي؟

ان التوحيد الذاتي يعني ان الله سبحانه وتعالى لا مثيل أو نظير له، وان مبدأ الكل هو واحد، والخالق واحد، وواجب الوجود هو واحد. وقد عبَّر القرآن الكريم عن التوحيد الذاتي كما يلي:

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[1] .

أو كما جاء في سورة الإخلاص التي نقرأها باستمرار :

﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ * اللهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُوْلَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾ .

فالقسم الأخير من هذه السورة «ولم يكن له كفواً أحد» هو توحيد في الذات ، أي لا مثيل ولا نظير لله .

توحيد في الصفات:

بالنظر إلى ان لذات الباري تعالى مجموعة من الصفات التي ذكرت في القرآن الكريم والتي تثبتها الأدلة الكلامية ، فإننا نقول بأنّ الله عليم ، وقديرٌ ، وحيٌّ ، وسميعٌ وبصيرٌ .

يقول القرآن الكريم :

﴿هُوَ ٱللهُ ٱلَّذِي لا إِلَهَ إِلّا هُوَ عالِمُ ٱلغَيْبِ وَٱلْشَّهادَةَ هُوَ ٱلرَّحْمٰنُ ٱلرَّحِيْمُ * هُوَ ٱللهُ ٱلذي لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلامُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحانَ ٱللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[2]

وقد ذكر القرآن الكريم صفات كثيرة لله . ويتساءل العلماء المسلمون؛ هل ان صفات الحق متحدة مع ذاته

---

(١) الشورى ـ ١١ .

(٢) الحشر ـ ٢٢، ٢٣ .

أم لا؟ (هـذه المسألـة تعتبـر من أعمق المسائل الكلامية والفلسقية). أجل، لقد ثبت بأن صفات الحق متحدة مع ذاتـه. وكلمة أحد في آية ﴿**قل هو الله أحد**. . .﴾ هي غير كلمـة واحد. فعندما نقول: **الله واحد**، فإنَّ هذا التوحيد هو توحيد لذات الله عزَّ وجلَّ، ولكن عندما نقول: **الله أَحد**، فـإنَّ هذا النوع من التوحيد هو توحيد في الصفات، أي انه بالرغم ٱمتلاك الباري تعالى لصفات كثيرة، إلَّا ان الكثير والتجزئة منعدمة في ذاته، وبعبارة أدق فهو أحدي الذات.

التوحيد الفعلي:

والمرحلة الثالثة من مراحل التوحيد، هي التوحيد في الأفعال، بمعنى ان الحاكم على كل العالم هو الله فقط، أي أن كل الكون، وكل ذرات الكون، تتحرك وفق إرادته.
ان هذا المصنع العظيم ـ الكون ـ اللامتناهي يتحرك على يـده، كما ان إرادته هي التي أوجدت هذا النظام العظيم، ولا يشاركه في قيادة العالم أي شيءٍ آخر.

ويقول القرآن الكريم:

﴿وَقُـلِ الْحَمْـدُ لله ٱلَّذي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدَاً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شرِيْـكٌ فـي ٱلْمُلْكِ وَلَـمْ يَكُـنْ لَـهُ وَلِـيٌّ مِـنَ ٱلذُّلِ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيْرَاً﴾[1].

---

(١) الإسراء ـ ١١١.

وكلمة (الملك)، هي اسم إلهي ومن أسماء الله، ولا يجوز في الدين الإسلامي إطلاق كلمة (الملك) على فرد من عباد الله إلا باضافة كلمة (عبد) كأَنْ يقال؛ عبدالملك، عبدالعزيز، عبدالرحيم عبدالرحمٰن، عبدالجبار. وان لفظ (الملك) هو من الألفاظ التي تدلُّ على التوحيد في الأفعال.

وبصورة عامة، فإنَّ التوحيد في الأفعال يعني ان الله لا شريك له في إدارة العالم. فلو قلنا انه يوجد في العالم؛ جبريل وهو ملك الوحي، واسرافيل وهو ملك النشور، وميكائيل وهو ملك الرزق وعزرائيل وهو ملك الموت، وأيضاً إذا قلنا انه يوجد في العالم نبي أو أنبياء، وإذا قلنا يوجد أولياء حق، وتوجد في الطبيعة قوى وطاقات وقدرات فيجب أن نعلم بأَنَّ كل تلك الأشياء تسير وفق إرادة الله. وإذا أَراد الله شيئاً فإنّما يقول له كن فيكون. وهذا هو التوحيد في الأفعال، أو التوحيد الفعلي كما يسمُّونه.

التوحيد في العبادة:

يطلق علماء الإسلام على المرحلة الرابعة من مراحل التوحيد، إسم (التوحيد في العبادة) فماذا يعني في العبادة؟

للتوحيد في العبادة جانبان: جانب يعود إلى الإنسان، وآخر يعود إلى الله، أي ان كل موجود عدا الله

لا يستحق العبادة، سواء أكان ذلك الموجود ملكاً مقرباً، أو نبيـاً مرسلاً أو ولياً من أولياء الله، أو غير ذلك، ولا يستحق أحـد العبـادة في هذا الكون سوى الله. ولذا فإنَّ ذلك الجانب مرتبط بالله. أما الجانب الذي يعود للإنسان فنعنـي به أن العباد ملزمون على أن لا يتخذوا معبوداً إلا الله، وان كلمة «لا إله إلا الله» غالباً ما تدل على التوحيد في العبادة.

إذن يوجد من وجهة نظر علماء الإسلام (بديهي ان وجهة نظرهم مستنبطة من القرآن)

توحيد ذاتي بحكم الآية التالية:
﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾.

وتوحيد في الصفات بحكم هذه الآية:

﴿لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾وتوحيد في الأفعال بحكم آية:
﴿لَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيْكٌ في ٱلْمُلْكِ﴾.

وتوحيد في العبادة بحكم آية:
﴿هُوَ ٱللهُ ٱلذِي لا إلَه إِلاَّ هُوَ﴾.

وبحكم:

﴿لا إلَهَ إِلاَ ٱللهُ﴾.

قلنا في بداية البحث بأن هناك نوعين من التوحيد: توحيد نظري وتوحيد عملي. فهل ان ما قلناه يناقض مـا

قاله العلماء المسلمون لحد الآن؟ كلا، فالاختلاف يكمن في التعابير فقط. ان التوحيد الذاتي وتوحيد الصفات والتوحيد الفعلي هي من عداد التوحيد النظري، أما التوحيد في العبادة، فيعتبر توحيداً عملياً.

والآن لنوضح معنى التوحيد النظري والتوحيد العملي. إنَّ المراحل الثلاث الأولى من التوحيد تختص بالمعرفة والإعتقاد والتفكر. فالتوحيد الذاتي يعتبر مسألة نظرية وفكرية أيضاً، أما التوحيد في العبادة فيعتبر من المسائل العملية ولذلك فقد قسَّمنا التوحيد إلى توحيد نظري وتوحيد عملي.

ونعني بالتوحيد النظري، كيفية المعرفة وكيفية التفكير. فالإنسان موجود مفكر، وله؛ تصورات، ومنطق، واستدلال، ولا بُدَّ لفكر الإنسان واستدلاله وتصوراته ومنطقه، أَنْ تصل إلى هذه المراحل الثلاث من التوحيد.

إذن فالتوحيد النظري، هو توحيد فكري، أي اعتبار الله واحداً في الذات والصفات والأفعال، أما التوحيد في العبادة أو التوحيد العملي، فهو من النوع الملموس، وبعبارة أخرى، عندما يطبق التوحيد النظري، فانه يسمى بالتوحيد العملي أو التوحيد في العبادة.

ومن خصائص الاعتقاد بالتوحيد، هو ان هذا

الاعتقاد يوجد عند الإنسان بصورة تلقائية، فكراً وتصوراً عن الوجود والحياة.

ان بعض التصورات التي يملكها الإنسان، لا تترك أي أثـر عليـه. فمثلاً لو درسنا المجرَّات، وأخذنا بعض التصورات والمعلومـات عنها بقدر المعلومات المتوفرة عند علماء الفلك، وعرفنا عدد النجوم والكواكب والأقمار التـي تـوجد في المجرَّات، وما اذا كان يوجد في الكون مجرَّة أو مجرَّات؟ فإنَّ هذه المعلومات هي معلومات قيِّمة للإنسان، إلا ان معرفتها أو عدم معرفتها لا تدفع بالانسان إلى ان يفكر كيف يجب ان تكون، ذلك ان هذا الأمر لا يترك أثراً على حياته ووجوده.

كان العلماء القدماء يعتقدون بأن الأرض هي مركز الكـون، وان الأجـرام السماويـة ومـن ضمنها الشمس، تدور حول الأرض، ولكن ثبت للعلماء المعاصرين بطلان هـذه النظرية، وقالوا بأَنَّ الشمس هي مركز مجموعة من الكواكب السيَّارة التي تُعَدُّ الأرض واحدة منها، وان هذه الكواكب تدور حـول الشمس لا العكس. وكان القدمـاء يتصورون بأَنَّ حركة الليل والنهار خلال ٢٤ ساعة متأنيـة مـن دوران الشمس حـول الأرض، فجـاء العلماء الجدد وأَثبتوا بأن الليل والنهار يحصلان عن حركة الأرض حول نفسهـا. فهل ان هذه الأُمور تترك أثراً على حياة الإنسان وسلوكه؟

الجواب: كلاّ ان سلوك وحياة الانسان لا يتأثران جرّاء معرفة ما اذا كان الليل والنهار حصيلة دوران الأرض حول نفسها أو كانا حصيلة دوران الشمس حول الأرض. ولكن مسألة الاعتقاد بالله وكثير من المسائل الموجودة في العالم (وعلى رأس هذه المسائل مسألة الله) تضفي على الإنسان نوعاً من النظرة الكونية، بحيث يفكر الإنسان معها بضرورة أن يكون على هذا الشكل لا على ذلك الشكل، يعني ان الإنسان إذا كان لا يعتقد بالله، فإنه يفكر في كيفية وجوده تفكيراً معيناً لا محالة، أما إذا كان يعتقد بالله، فإنه يفكر بشكل آخر، إذْ لا يمكن للإنسان أن يفكر بشكل واحد في كلتا الحالتين. لماذا؟

لو قلنا بأن الله يعني: ان العالم والوجودِ من ضمنه وجود الفرد، لهما مبدأ حكيم، عليم، مدرك، لخطرت في ذهن الإنسان جملة من الأسئلة: هل هناك غاية من الخلقة أم أنها عبث؟ وهل خلق الإنسان عبثاً، أو لأجل شيءٍ معين؟ ولو كانت خلقة العالم تقوم على أساس الصدفة وكانت مادية، لكانت هناك حركات غير منظمة في العالم، لأَنَّ المادة لا تتوقف عن الحركة، وليس لها غاية، وتعمل بطريقة عمياء ضمن حركات عفوية، وبذلك يكون الإنسان قد ظهر في هذا العالم بطريق الصدفة!

إذن فلا داعي لأَن يسأل الإنسان عن سبب خلقته كأن تسأل الشرارة التي تقذف فجأة جراء تدوير ـ الجمرات

النـارية في الهواء ـ عن سبب توجهها إلى ذلك الطرف؟ إذ لا داعي لسؤال الشرارة النارية.

ولكن لو فكَّر الإنسان بأَن مجموع العالـم، له مبدأ حكيم، وفـكَّر أيضـاً في سببْ خلقته؟ لخطرت في ذهنه الأسئلة التالية: كيف يجب أن يكون كي ينطبق مع الغاية المقصودة من خلقته؟ وكيف يجب أن يكون لكي لا ينطبق وجـوده مع الغاية المقصودة من خلقته؟ وماذا سيحدث إذا لـم ينطبق وجوده مع المقصود؟

فـاذا مـا حـدث ذلك، فسيكون مصيره سوء الحظ والشقاء. أما إذا انطبق وجوده مع الغاية من خلقته، فإنَّ نتيجة ذلك ستكون السعادة. ولهذا فإنَّ التوحيد النظري، يتبعه توحيد عملي.

وهنـا أشيـر إلـى مسألـة أخـرى بمناسبة الآية التي تحدثت عنها، وهي أول مسألة أتحدث عنها في مجال التوحيد العملي. وباعتقادي فإنَّ هذه الآية القرآنية لها صفة الإعجاز لاحتوائها على نقاط تتعلق بروح ونفس الإنسـان مـن النـاحيـة النفسيـة. فـالقـرآن يضـرب مثـلاً للموحد والمشرك، أي للذي له توحيد عملي والذي لـه شرك عملي، فيقول ﴿ضَرَبَ ٱللهُ مَثَلاً رَجُلاً فيه شُركاءُ مُتشاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَويانِ مَثَلاً﴾[1].

---

(١) ذالزمر ـ ٢٩.

فمثلاً لو كان هناك عدة شركاء في بيت معين، فمن الممكن أن يكون هؤلاء متفقين مع بعضهم البعض، فلا تكون هناك مشكلة بينهم. ولكن لو كان هناك شيءٌ معين (دار أو أرض وما شابههما) وتابع لعدة أشخاص شركاء في ملكيته، ولهؤلاء الأشخاص طباع سيئة، ولا يتفقون فيما بينهم، مثلاً يقول أحدهم: أريد أن أسكن في هذا البيت، ولا أُؤجرهُ لأَحدٍ، ويقول الآخر؛ كلا يجب أن تؤجر البيت، ويقول الثالث: أريد أن أُؤجر البيت إلى بائع الخمر... فكل واحد يقول شيئاً، ذلك أن الموضوع هو موضوع ملك، ينعدم فيه الشعور والإدراك. وصحيح أنه ليست هناك راحة من وجهة نظر الشركاء، ولكن لا يكون كذلك بالنسبة للملك الذي لا يشعر بعدم الإرتياح من اختلاف مالكيه (كما بيَّنت ذلك في مثالي).

ويضرب القرآن مثلاً، فيقول: تصوّروا عبداً من العبيد، له شعور وإدراك، وهو عبد لعدة أشخاص، لهم طباع سيئة، وغير متفاهمين فيما بينهم، فأحدهم يأمر العبد وبكل عنجهية أن ينجز عملاً معيناً وإذا لم ينجز العمل فسيعاقبه، وآخر يأمره بعدم الإعتناء بكلام الأول ويجب أن يعمل وفقاً لما يريده هو وإذا لم ينفذ ما أمره به فسيعاقبه. والشخص الثالث يأمره بشيء، ورابع وخامس يأمرانه بشيءٍ آخر. فماذا سيكون حال هذا العبد المسكين؟

وفي الطرف الآخر للمقارنة، عبد آخر، يخضع

لآمر وحاكم واحد، ويسير وفق برنامج واضح من البداية حتى النهاية.

ويضرب الله هذا المثل لتبيان حالة الإنسان الداخلية. ففي نفس الإنسان أسئلة أوّلها: هل يمكن للإنسان أَنْ يعيش حراً دون أن تكون له إرادة وأُمنية وهدف؟

لقد افترض البعض الافتراض التالي، وهو ان الانسان يرغب العيش في حرية مطلقة! فإنَّ هذه الرغبة (رغم أنها أمر مستحيل) تساوي خروج الإنسان من انسانيته، إِذ تعني ان لا يتقبل الإنسان أي حكم وهدف وأُمنية وفكرة، أي أن يكون مجرداً من أي عقيدة على الإطلاق. وهذا يعني سقوط إنسانية الإنسان. ولا توجد مثل هذه الحالة في الدنيا، فحتى الأشخاص الذين يؤيدون الحرية المطلقة ـ ولا يستسلمون لأي حاكمية ـ تكون حياتهم مليئة بالعقائد، ويبحثون عن عقيدة معينة، وان الإنجرار نحو عقيدة معينة يعني قبول حاكمية تلك العقيدة. فلا غرابة في أَن يأتي القرآن بأسماء معينة مثل العبد. ويجب أن لا يقال؛ لماذا عندما يريد القرآن أن يضرب مثلاً حول الإنسان فإنه يضرب مثلاً عن العبد؟ عبد يمتلكه عدة أشخاص سيئي الخلق والطباع، وعبد آخر تابع لفرد واحد متفق مع العبد؟

الجواب: ان الإنسان لا يمكنه رفض حاكمية أي عقيدة، ولو افترضنا انه يرفض ذلك، فإنه يخرج عن الإنسانية.

وإذا رسَّخ الإنسان أُمنية رئيسية في نفسه بحيث طغت على جميع الأُمنيات الأخرى ـ وأصبح يسير وفق تلك الأُمنية ـ وسخَّر كل أُمنياته الأُخرى من أجل تحقيق تلك الأُمنية، فإنَّ شخصيته تعتبر شخصية سالمة من الناحية النفسية، أي ان مثل هذا الشخص يحتفظ بشخصيته، وان روحه غير مجزأة. وهذه الحالة تسمى (المجموع) أو (المجموعة) حسب اصطلاح عرفائنا. وتوجد أمام هذه الحالة، حالة معاكسة تسمى (التفرق) أو (التشتت) أو (الكثرة).

وحالة (المجموعة) تعني حالة وحدة الروح، أي وحدة الروح والنفس الإنسانية. أما التفرق ـ كما يعرِّفه العرفاء ـ فيعني انقسام روح الإنسان. فكيف يمكن لروح الإنسان أَنْ تكون بهذا الشكل؟

تكون روح الإنسان بهذا الشكل عندما تشغل الأفكار والتِصورات والأهداف والأُمنيات المختلفة والمتضادة وغير المتناسقة ـ أو بتعبير القرآن الطباع السيئة والمشاكسة والأخلاق السيئة ـ جزءاً من روحه. ولكن هذا الإنسان الذي يميل جزء من روحه وبشدة ألى شيء معين، يميل جزء آخر منها وبشدة إلى شيء آخر بكل استبداد وخلق سيِّءٍ وعبث. كما ان جزءاً من روحه مليء بالعقد والأحقاد والغضب، وجزءاً يشغله شيءٌ آخر... والخ.

ولو تطلع الإنسان إلى نفسه، لشاهد وبكل وضوح

هذه الحالة من الصراع فيها. وأحياناً يشغل الإيمان جزءاً من روح الإنسان، ولكن هذا الإيمان غير مؤثر، ذلك إن الإيمان الضعيف يشغل جزءاً من روح الإنسان، في حين ان الأجزاء الأُخرى تخضع لسيطرة العدو. هذا النوع من الإيمان لا تأثير له.

فيسير حيناً نحو الحلال، وأُخرى نحو الحرام
فيمسك بإحدى يديه المصحف وبالأُخرى كأساً حراماً
نصف روحه في المسجد ونصفها الآخر في خارجه
وهو ليس كافراً مطلقاً أو مسلماً تماماً

نصف روحه كافر، ونصفها الآخر مسلم فهو يذهب ساعة إلى المسجد، فيكون نصف روحه هناك، أما النصف الآخر فيكون ساكتاً مؤقتاً، ولكن وبعد ساعتين من خروجه من المسجد، يتحكم النصف الآخر من روحه الذي كان ساكتاً آنذاك. وليس هناك أي تجانس أو هدف أو تبعية وتناسب بين هذين النصفين. وبغض النظر عن ذلك، فإنَّ روح الإنسان إذا قطِّعت إلى أجزاء، وذهب كل جزء إلى جهة معينة، فإنَّ ذلك يعتبر مدعاة لسوء حظه. ومثل هذا الإنسان لا يمكنه أن يؤدي عملاً رئيسياً، كما ان المجتمع الذي يتشكل من مثل هؤلاء الأفراد ـ هو مجتمع مريض.

وقد قلنا بأن الإيمان إذا ما شغل جانباً من وجود الإنسان، وشغل الكفر جانباً أخرـ وقد يشغل الكفر والفسق جانباً أكبر من جانب الإيمان ـ فإنَّ عشر روح الإنسان

يخضع للإيمان، وتسعة أعشار روحه تخضع للكفر والفسق. وغالباً ما يكون هذا النوع من الإيمان غير قائم على أساس محكم، وهو إيمان تقليدي.

ولكن إذا آمن الإنسان بالله بصورة تحقيقية، وكان توحيده النظري والفعلي توحيداً تحقيقياً، وكان إيمانه يقوم على أساس المنطق والإستدلال والأُصول، فإنَّ من خصائص هذا النوع من الإيمان هو ظهور الوحدة في نفس الإنسان. وكما يقول العرفاء فإنَّ المجموعة أو الجمع هي حالة الإجتماع في نفس الإنسان، وإذا خرج الشرك من فكر الإنسان فإنه يخرج من روحه أيضاً.

وتعبير ذلك للتوحيد النظري (فيما يتعلق بتوحيد الأفعال اللذين يجب أن يكونا متلازمين معاً) هو: قول الباري تعالى في الآية الأُولى: **﴿لَوْ كانَ فيهما آلِهةٌ إلاّ اللهُ لَفَسَدَتَا﴾**.

فلو كان للعالم أكثر من حاكم، لما كان هذا النظام يتحكم في العالم، ولما اعتبر ذلك عالماً ولكان العالم قد فني وفسد. وان حاكمية هذا النظام على العالم تدل على ان هناك حاكماً واحداً يتحكم فيه. هذا بخصوص التوحيد النظري

أما ما يتعلق بالتوحيد العملي، فالآية الثانية تقول: **﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَجُلاً فِيْهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمَاً لِرَجُلٍ﴾**.

وكأنَّ الباري عزَّ وجلَّ يريد أن يقول: أَيُّها الإنسان؛ إذا كانت هناك آلهة تتحكم في روحك وكان لك عدة معبودين، فإنك ستفسد كما يفسد العالم إذا كان فيه أكثر من إله واحد.

أَيُّها الإنسان؛ إذا كنت مشركاً في تفكيرك، فإنك مشرك في روحك، وإذا كنت مشركاً في روحك، فإنَّ روحك ستتقطع إلى أوصال وسوف لن تكون إنساناً حينذاك، بل موجوداً عاجزاً ومريضاً وفاسداً.
وقد قلت بأن هذه الآية القرآنية تعبِّر عن التوحيد العملي بتعبير نفسي خاص وإعجازي - حسب وجهة نظري - فلنتأمل في هذا المثل. إذن، فإنَّ أول تأثير لله في حياة الإنسان، هو تأثير نفسي، وتأثير أخلاقي، وسلامة نفسية. ولكن هذه السلامة النفسية حسب تصور القرآن الكريم هي وحدة النفس وتناسقها.

ان الله في حياة الإنسان، يساوي وحدة نفس الإنسان، ويساوي التناسق النفسي، ونجاة الإنسان من تجزئة روحه وظهور شركاء في روحه. إنَّ جذور الأخلاق في الإسلام تكمن ههنا. ولهذا قيل ان كل شيءٍ في الإسلام ينبع من التوحيد.

المحاضرة الثانية

قلنا فيما مضى بأن التوحيد من وجهة نظر الإسلام، ينقسم إلى نوعين:

١ ـ توحيد نظري.

٢ ـ توحيد عملي.

وقلنا بأن العلماء المسلمين قسَّموا التوحيد النظري إلى ثلاثة أنواع:

١ ـ توحيد في الذات.

٢ ـ توحيد في الصفات.

٣ ـ توحيد في الأفعال.

وهـذه الأُمور مستنبطة من القرآن المجيد، وترتبط بالفكر والتصور والإعتقاد، وتعتبر نوعاً من التصور والمعرفة، وحصيلة نوع من التفكر. إلاَّ ان التوحيد العملي، هو التوحيد الذي يعبِّر عنه علماء الإسلام: بـ (التوحيد في العبادة) وهو نوع من الحياة ونوع من (الوجود).

فالأول يعتبر نوعاً من التصور، والثاني يعتبر نوعاً من الحياة والوجود بإيصال الإنسان إلى الكمال، أي أن

الإنسان يعتبر موحداً ما دام يمر في مرحلة التصور، غير انه لا يعتبر موحداً كاملاً، بل لا يعتبر موحداً حقيقياً. إذ أن الموحد الحقيقي هو الشخص الذي يجب أن يكون موحداً في مرحلة الحياة ومرحلة (الوجود).

وبالمناسبة، فاننا نجد خطبة الصدّيقة الكبرى فاطمة الزهراء التي ألقتها في مسجد الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) في جمع من المهاجرين والأنصار ـ وتعتبر من الخطب القيِّمة في العالم الإسلامي ـ بعد أن تبدأ بالحمد والثناء والشكر لله تتطرق إلى الشهادة بالتوحيد بالتعبير التالي: «أشهد أَن لا إلّه إلَّا اللهُ وحدهُ لا شريك له، كلمةٌ جَعلَ الإخلاص تأويلها، وضمنَ القلبَ موصولها، وأَنار في الفكر معقولها».

وتبين الزهراء (عليها السلام) في شهادتها هذه، اعتقادها بالتوحيد النظري، ولكنها ومن أجل أَن توضح بأَنَّ التوحيد النظري غير منفصل عن التوحيد العملي في الإسلام، تقول: «كلمة جعل الإخلاص تأويلها».

وحسب التعبير القرآني، فان التأويل يعني المآل. والشيء الذي تكون عودته ونهايته بل وحقيقته عائدة له يعتبر تأويلاً لتلك الحقيقة.

وهذه الجملة تبين بأَن التوحيد النظري إذا كان توحيداً نظرياً محضاً، (أي إذا لم يتعد مرحلة الفكر

والمرحلة النظرية إلى المرحلة العملية، وتوقف في مرحلة التصور ولم يتحقق في مرحلة حياة الإنسان) فانه لا يعتبر توحيداً حقيقياً من وجهة نظر الإسلام.

ان أكثر الأفراد المتكلمين - يطلق علماء الإسلام مصطلح المتكلمين على الأفراد الذين يتحدثون عن أصول الدين - الذين كانوا يعتبرون من علماء علم الكلام، وكانت لهم القدرة على الاستدلال بصورة جيدة، والذين كان بإمكانهم غلبة وإدانة خصومهم حين كانوا يُسألون عن طريقة إثبات وجود الله ووحدانيته وقدرته وعلمه وحكمته، كانوا يأتون بالدليل تلو الدليل للسائل، فكانوا يحفظون الأَدلة بمهارة كما يحفظ الطالب درسه، ذلك انهم كانوا متكلمين، وكانوا ملمين بعلم الكلام.

لقد كان من بين هؤلاء المتكلمين (ولا نريد أن نقول كل المتكلمين) أفراد لم يتجاوز توحيدهم مرحلة الفكر والخيال والتصور إلى مرحلة العمل والإخلاص، أي لم يكن بإمكان هؤلاء أن يعيشوا موحِّدين بصورة عملية، وكأنَّ مرحلة توحيدهم كانت تنحصر في مرحلة فكرهم وتصورهم، ولا تتعدى إلى أبعد من ذلك. انهم كانوا موجودات مشركة! وعبيداً لألف شيء وألف شخص غير مؤهل! كانوا يعبدون الشيطان ومع ذلك كانوا موحدين من ناحية التصور، ويثبتون وجود الله بأَدلة جيدة. فهل يعتبر هؤلاء موحدين من وجهة نظر الإسلام؟

الجواب: كلا ان التوحيد حسب وجهة نظر الإسلام يجب أن يطبق في وجود الإنسان، إذ ان (الله) في التصور والفكر إنما هو مقدمة لـ (الله) في الحياة. فالتأثير الأول للتوحيد هو الوحدة والإنسجام في النفس الإنسانية، لأن التوحيد يعني الوحدة، وحدة العالم، بدليل وحدانية الله: ﴿لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلاَّ ٱللهُ لَفَسَدَتَا﴾[1].

وهـذه الآية تريد بيان وحدة النفس، والمثال الذي يضربه القرآن بهذا الصدد، مثال عجيب وبديع جداً. ان المثل الذي يضربه القرآن حول الشخص الموحد والمشرك، مثل مؤخوذ من نفسيتهما.

تقـول الآيـة إن مَثَـلَ الإنسان المـوحد مـن الناحية النفسية، كمثل الشخص المخلص الذي يسلِّم أَمره لشخصٍ ومقام واحدٍ، وتسيطر على وجوده قوة واحدة، أما الفرد المشرِك، فلا تتوفر وحدة وتجانس وتناسق في شخصيته، ويستحوذ على نفسيته عدة شركاء ومالكين، يشتركون في وجوده، وهؤلاء الشركاء لهم طبائع وأخلاق سيئة وهم أعداء فيمـا بينهـم، أي شركـاء متشاكسون. والإنسـان البذيء الخلق هو الإنسان ذو الطبيعة السيئة. ولو كـانت هناك نفس تتحكم فيها قوى متضادة وغير متجانسة، وكان كـل جـزء مـن نفسـه تحـت تصـرف أحـد المـالكيـن،

---

(١) الأنبياء ـ ٢٢.

لتمزقت تلك النفس.

وبشكل عام، هناك نوعان من التفكير حول تصورات الإنسان وشؤون حياته، فهو يفكر في بعض المسائل، ويفكر في الوجود، أي يحصل على نظرة كونية كما يعبر عنها اليوم وقد ينتهي تفكيره إلى الثنوية (التي كانت سائدة في إيران قديماً) أي الإعتقاد بوجود قوتين أصيلتين تتحكمان في العالم، فيعتبر بعض الظواهر والحوادث حسنة نيرة أي خيراً ويعتبر الظواهر والحوادث الاخرى مظلمة ومذمومة، أي شراً. فالعالم ينقسم بنظر هذا الشخص إلى أُمور لا بُدَّ من وجودها، أي أن الأشياء الموجودة والتي ما كان لها أن توجد، فهي شر وظلام! فكيف كان ذلك؟ ولماذا يكون نصف العالم خيراً، ونصفه الآخر شراً! حتى انهم ـ أصحاب العقيدة الثنوية ـ قسموا مناطق العالم إلى مناطق خير ومناطق شر، فمثلاً تعتبر المنطقة الشمالية، منطقة خير، فهي خضراء وبهيجة وفيها فواكه وأَسماك كثيرة، ولكن هناك صحراء لوط أَيضاً التي لا يوجد فيها سوى الموت. ووصل بهم الأمر بأن قسموا الأراضي إلى قطع خير وقطع شر! إذاً فهناك قوتان تتحكمان في العالم: الأولى تعتبر منشأ الخير والنور، والأُخرى تعتبر منشأ الشر والظلام! وهذا ما يسمى بالرؤية الكونية الثنوية.

وكما نعلم فإن هناك رؤية كونية ثالوثية تسود الكثير من نقاط العالم، ويعتقد أصحاب هذه العقيدة بأن

للعالـم وكل شيء ثلاثة أبعاد فهم ينظرون إلى مبدأ العالـم، كثلاثـة أشياء، أو شيء له ثلاث نواح، أو جـود واحـد، ولكن بثلاث قوى، وبثلاث نواح، وهذا ما يسمى بالتفكير الثالوثي. كما كان يوجد في العالم أُناس يعتقدون بأن هناك قـوىً بعدد الأنواع الموجودة في العالم، فكانوا يعتقدون بـأن الإنسان يعتبـر أحـد الأنواع، وله رب مستقل، وان الحصان يعتبـر هوعاً آخر وله رب خاص به، وللماء رب خـاص به وللنار رب خاص بها. وفي مقابل هذه الرؤى هنـاك رؤيـة كونيـة تـوحيدية ترى بأن كل شيء في عالم الوجود يعود إلى قوة واحدة، ومبدأ واحد، كما وتعتقد بأن النظام الكلي للعالـم يعتبـر نظام خير، أَي انها تعتقد بعدم وجود أشياءَ موجودة ما كان يجب أَنْ تخلق. وهذا هو منطق القرآن الذي يقول: ﴿الّذي أحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقهُ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلإنْسانِ مِنْ طِينٍ﴾[١].

وينقـل القـرآن عن موسى بن عمران وأخيه هارون قولهما لفرعون: ﴿قـالَ رَبُّنَا ٱلَّذِي أعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[٢].

وهناك آيات أُخرى تتعلق بهذا الموضوع، ولكن ما هـو منشأ هذه الأفكار المختلفة؟ ولماذا يكون مجتمعٌ ما مـوحداً ـ أَي مـوحداً فـي العبادة ـ ومجتمع آخر ثالوثيا؟

---

(١) السجدة ـ ٧.

(٢) طه ـ ٥٠.

وآخر يعتقد بالثنوية، أَي يتبع الثنوية في العبادة؟ ومجتمع اخر له آلهة متعددة حتى اصبحت الآلهة في بعض الأحيان بعدد أفراد البشر أو على الأقل بعدد الأنواع الموجودة في العالم؟! ما هو أصل هذا التشتت الفكري؟ ومن أين نشأ؟

يعتقد بعض العلماء بأن الإنسان له فكر ومنطق وقوة للاستدلال بحيث يستطيع الاستدلال في مسألة ما بصورة جيدة ويتوصل إلى الحقيقة. وقد لا يمكنه الاستدلال بصورة جيدة، فيقع في الخطأ، أو أنه قد يقبل أَمراً ما على أساس الفكر والعقل والمنطق، ومن الممكن أَن يقبل أَمراً آخر على أساس التقليد والتلقين وتبعاً للأجواء التي يعيش فيها.

ويرجع منشأ اختلاف هذه الأفكار والرؤى إلى أن بعض الرؤى وجدت عند بعض الشعور بحكم التقليد والتلقين، كما وجدت في شعوب اخرى بحكم الإنزلاق الفكري، ووجدت صحيحة عند شعوب أُخرى بحكم أفكارها الصائبة واستنتاجاتها الصحيحة، ومن جهة أُخرى يعتقد البعض بأن الافكار والرؤى الكونية التوحيدية أو الثالوثية أَو الثنوية أَو أَرباب الأنواع بل حتى الرؤية الكونية المادية ليست لها أَصالة! إِذاً ما هو الشيء الأصيل بنظر هؤلاء؟

يقول هؤلاء: لا بُدَّ من دخول حياة الشخص ومعرفة حياته الشخصية ونظامه الاجتماعي والاقتصادي، والسياسي. وإذا ما تمت معرفة ذلك أمكن معرفة الرؤية

الكونية للشخص، وبعبارة أُخرى فان جذور الرؤي الكونية التي تشمل الرؤية الكونية المادية التي تنكر وجود الله - حسب رأي هؤلاء - تكمن في الحياة الإجتماعية للشخص، فمثلاً إذا عاش الإنسان في مجتمع يقوم على أساس الديمقراطية والحرية والمساواة، ولم يتحكم فيه فرد أو حكومة ما، فهل من الصحيح أن نقول إِنَّ هناك قوة أو قوتين أَو ثلاث أَو عشر قوى أَو ألف قوة تتحكم في العالم؟.

ويقول هؤلاء أيضاً ان العالم لا تتحكم فيه أية قوة! وذلك لعدم وجود قوة تتحكم في المجتمع الذي يعيش فيه. فهو يتقبل العالم حسب مجتمعه، وبعبارة أدق فان الإنسان يعتبر العالم مثالاً لمجتمعه، ويتصور بأن نظام العالم هو نفس نظام مجتمعه. فالشخص الذي يعيش في مجتمع ملحد ينظر الى الكون نظرة الحادية، والمجتمع الذي تتحكم فيه آلهة متعددة ينظر إلى الكون نظرة حاكمية الآلهة المتعددة، والمجتمع الذي تتحكم فيه قوتان تكون نظرته الكونية ثنوية، والمجتمع الذي تتحكم فيه ثلاث قوى تكون نظرته الكونية نظرة ثالوثية. أما المجتمع الذي تتحكم فيه قوة واحدة فان نظرته الكونية ستكون نظرة توحيدية حتماً، أَي انه يرى العالم من خلال مرآته.

ولهذا الكلام الذي يقوله كثير من علماء المجتمع، جذور في الفلسفة الأوروبية التي سلخت فيها العقيدة

الإلهية ومعرفة الله، وسلخ فيها التوحيد، وبالتالي الإنسان نفسه.

ومن الأمور التي قدمتْ قرباناً على مذبح الإنسانية في أوروبا والتي نُحِرَ الإعتقاد بالله والإيمان به على اثرها هو مسألة سلب الأصالة من منطق الإنسان بأي شكل كان، وهذا معناه أن عقل وفكر ومنطق الإنسان لا تعتبر قوىً حرةً وأصلية.

ان بعض الأفراد حينما تطرح عليه مسألة، ويقال له بأن للفيلسوف الفلاني النظرية الفلانية حول الموضوع الفلاني، أو إذا قيل له بأن الأرض مركز الكون وأن الشمس تدور حول العالم، أو أن هذه النظرية خاصة بالكُلف الموجودة في الشمس، أو في القمر أو خاصة بالمجرات، أو بالأعداد والرياضيات، ونظرية فيثاغورس الذي يعتقد بأن الأعداد مبدأ كل الأشياء، لقال: هات الشروط العينية والذهنية لتلك المسألة كي أعلل لك سبب تفكيرك هذا.

ان القرآن الكريم يرى بأن الشروط العينية والذهنية تعتبر منزلقاً في فكر الإنسان، وقد توصل العلماء المسلمون إلى ذلك منذ صدر الإسلام، إلّا أن الإختلاف يكمن في: هل ان بإمكان فكر الإنسان ومنطقه أنْ يتحررا من تأثير وجذب الشروط العينية والذهنية أم يستحيل عليهما ذلك؟ وهل أن الشروط العينية والذهنية التي تعتبر نظارات

ملونة وضعت جبراً على عيني الإنسان ولا يمكنه طرحها جانباً أم أنه يتمكن من استبدالها بنظارات بيضاء أو حتى الاستغناء عنها، فينظر إلى الأشياء بصورة مباشرة؟

فهـذه النظرية تقول بدورها: هات الشروط العينية والذهنية كـي أُعلل لك جميع أفكار وتصورات المذاهب والفلسفات والنظريات في العالم.

إن شخصـاً كهـذا يقدم الإنسان ونفسه أيضاً قرباناً لنظريتـه، فما هي قيمة فلسفته؟ لا شيء. ففلسفته أيضاً تتبع الشروط العينية والذهنية له وكذلك غيره. انه يعتقد بعدم امكان استبدال نظارته الخضراء بنظارة أُخرى ما دام يعيش في ظل الظروف المحيطة به، ويعتقد أن من يضع نظـارة حمـراء يرى العالم أحمر وفق نظارته ولا يمكنه استبدالها بغيرها ما دام يعيش في ظل الظروف المحيطـة به، وإذا ما حل ذلك الشخص ـ ذو النظارة الحمراء ـ محل الفـرد ذي النظارة الخضراء فانه سوف يرى العالم كما يراه ذو النظارة الخضراء لا محالة، والعكس صحيح أيضاً. إذاً فليست هناك إية قيمة لفلسفته أو فلسفة غيره، كما وليست هناك أية قيمة لتصوراته وأفكاره ويجب أن يطرح منطقه وعلمه واستدلاله وكل شيء (مادي أو إلَهي) جانباً! وهنا نواجه السفسطة. أما إذا أعطينا الإنسان أصالة ـ على أقل تقدير ـ وأنقذناه من هذا المسلخ، فان ذلك العمل يعتبر صحيحاً إلى حدٍ ما.

يقول الإمام علي (عليه السلام): «من عَشقَ شيئاً أعشى بصره وأمرضَ قلبه». كما قيل أيضاً: «**حُبُّ الشيء يُعمي ويصم**». وان هذا القول: «**إمارة العقلِ مكسوفٌ بِطوعِ هَوىً**».

هو كلام صحيح، وكل هذه الأقوال صحيحة، وتحث الإنسان على تحرير نفسه، وتبين قدرته على ذلك، وتدعوه إلى عدم اليأس أو الشعور بالعجز.

إذاً فهناك نوعان من التفكير: أحدهما يعطي الإنسان أصالة في فكره ولكن ليس في كل الظروف، فمسألة تقليد الإنسان واتباعه الكبراء خطأ لا يقبل به القرآن بالإعجاز وهو يتحدث عن منشأ الإنحراف الفكري.

وآخر يقول: إن النظرة الكونية للإنسان تتأتى تبعاً للشروط العينية والذهنية والإجتماعية، ولكن القرآن يرفض هذا النوع من التفكير، ويقول بأن الإنسان يمتلك ذلك المقدار من الأصالة للتوصل إلى الحقيقة إذا ما قاد عقله وفكره بشكل سليم. وفي مثل تلك الحالة فإن فكر الإنسان سيعمل على بناء مجتمعه وروحه.

يقول تعالى: **﴿ضَرَبَ ٱللهُ مَثَلاً رَجُلاً فيهِ شُرَكاءُ متَشاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لرَجُلٍ هَلْ يَسْتوِيانِ مَثَلاً . . . .﴾**[1]

(١) الزمر ـ ٢٩.

القرآن يريد أن يقول: أيها الإنسان، فكِّر جيداً، تصوَّر جيداً، ليكن لك تصور حر. إنا أعطيناك أصالة تمكنك من التخلص من تلك الظروف. فكِّر جيداً، تصوَّر جيداً، إن تصورك سوصلك إلى الحقيقة التي ما ان تصلها حتى ترى أُولى آثارها وثمارها. وهذا الأثر هو تخليص نفسك من التشتت والتفرقة، وبعبارة أخرى شفاؤك من أكبر داء نفسي.

قد تكونون قرأتم بأنه حتى علماء النفس الماديين والملحدين كـ (فرويد) مثلاً يقبلون هذه الحقيقة، وأن الإحصاءات تشير إلى أن المجتمعات البشرية المؤمنة بالله هي أكثر سلامة من غيرها من الناحية النفسية وذلك بحكم الوحدة والتجانس والتناسق الذي يتركه الإيمان بالله على النفوس البشرية. كما تشير إلى أن المجتمع غير المؤمن بالله يصاب بالأمراض النفسية أكثر من غيره.

ومن الظواهر الموجودة في مجتمع اليوم هو ازدياد الأمراض الجسمية بصورة أكثر مما كانت عليه قديماً، وكذلك ازدياد الأمراض النفسية الفتاكة، ويقال بأن للأمراض الجسمية جذوراً عصبية، ويطلق على أمراض قرحة المعدة وقرحة الأمعاء وقرحة الاثني عشري بـ (أمراض المدنية) لماذا؟ هل أن السيارة مسؤولة عن إصابة الفرد بمرض قرحة المعدة؟ هل يصاب الإنسان بقرحة المعدة إذا ما ركب الطائرة التي تقطع مسافة ١٥٠

فـرسخاً خلال ساعة مثلاً؟ إن ركوب الطائرة لا يترك أثرا كهذا، إذاً ما هو مرض المدنية؟

ان مرض المدنية يكمن في الفراغ الذي تركه انعدام الإيمان عند الإنسان في الحضارة الحديثة، وهناك مناظرة موجودة في أحد كتب فرويد ـ ترجمها أحد المنحرفين ـ تـدور بين فرويد وتلميذه اللامع (يونغ) الذي يعتبر مـن الباحثين في حقل علم النفس، ومن المؤمنين بالله والذي دحض نظرية استاذه فرويد حول مسألة (اللاشعور) حيث فنَّد ما ذهب إليه فرويد من أن جميع عنـاصـر اللاشعـور الموجودة في الإنسان إنما تعتبر هزيمة وتراجعاً عن مرحلة الشعـور، مـوضحـاً بـأن هنـاك عناصر فطرية وأصلية في مرحلة اللاشعور من نفس الإنسان، والذي يشكل الإيمان بالله أحدها، ويعترف فرويد في هذه المناظرة بدور الدين والمذهب في الحد من الإمراض النفسية، ويعترف أيضاً بأنهما يقفان إلى حد كبير بوجه شيوع الأمراض النفسية ولكنه ـ وبما أنه منكر لهما ـ يعتقد بوجوب تحرير البشر مـن قيودهمـا، لأنها خرافة ـ كما يعتقد ـ ! وأن الإعتقاد بالخرافة هو نـوع مـن المرض. غير أن (يونغ) يجيبه بأن المذهب لا يعتبر خرافة، بل هو حقيقة، ومن الإجرام أنْ نترك علاجاً من أجل سلامة النفس وأنْ نتمسك بتصوراتنا.

ولو يليام جيمز الذي يعتبر من أبرز الفلاسفة الباحثين التجـريبيين فـي العالم، كتاب بـاسم (الدين والنفس).

لاحظوا أن لهذا الرجل رأيا حول دور الإيمان في سلامة النفس، وهذا الرأي يعبر عن نفس الشيء الذي تعبر عنه هذه الآية: **﴿ضَرَبَ اللهُ مثلاً رَجُلاً فيهِ شُركاءُ مُتشاكِسُونَ ورَجُلاً سَلَماً لرَجُلٍ هَلْ يَسْتَويَانِ مَثَلاً، ألْحَمْدُ للهِ بَلْ أكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾**.

ولا أتصور أن أحداً استطاع أنْ يعبِّر عن هذا الموضوع بالشكل المختصر والشامل الذي عبَّر عنه القرآن، حيث تظهر على الإنسان صفة تعدد الشركاء بصورة جبرية عندما لا يتحكم الإيمان بالله والتوحيد وعبادة الله والتوحيد العملي في حياته؟

ومن يتصور أن بأمكان الإنسان أن يتحرر من كل شيءٍ هو على خطأ. إذ أن تحرر الإنسان من كل شيءٍ يعني موته، ذلك أن هناك تحرراً من الهدف أيضاً وتحرراً من المسؤولية ومن التعهد والإلتزام أيضاً. فإذا أراد الإنسان أنْ يكون إنساناً، فلا بُدَّ له أن يحمل هدفاً، وأن حمله الهدف يعني خضوعه له لأنه سيحكم وجوده. يقول الفلاسفة إن كل دافع يسمى بالعلة الغائبة، يعتبر في الواقع فاعل الفعل.

فهل يمكن للإنسان أن يعيش دون دافع؟ وهل يمكنه أن يشرب الماء دون دافع؟ كلا، ان ذلك أمر مستحيل. هل يمكنه أن يدخل المسجد دون دافع؟ كلا، ان ذلك أمر مستحيل أيضاً.

ان الإنسان عندما يغمر رأسه في ماء المسبح له دافع يدفعـه إلى أن يفعل ذلك، كما أن هناك دافعاً آخر يدفعه إلى اخراج رأسه من تحت الماء، فإذا لم يكن لهذا الشخص دافع لما كان يقدم على غمر رأسه في الماء أو أن يكتب دون دافع.

هـل يمكـن أن يـدَّعي الإنسان خدمة البشرية دون دافع؟ وهل يمكن أن يدَّعي المسؤولية والعهد دون دافع، ثـم يدَّعي الحرية المطلقة والعصيان المطلق ويقول أريد أن أعصي، إذاً فلي وجود؟ هل فكَّر الإنسان بأن له هدفاً ودافعاً؟ إن الإنسان إذا كان له دافع معين، فإنَّ ذلك الدافع سيتحكم في وجوده.

إن أمـر الانسان لا يدور بين أمتلاك الدوافع وبين الأفتقار اليهـا، بـل يدور بين امتلاكه لدافع وبين امتلاكه لالاف الدوافع. فهل يدور الإنسان بين وجود دافع يطغى عل كل الدوافع وبين وجود دوافع سيئة؟

ومن هنا نرى بان القرآن الكريم لا يطرح مسألة عدم وجود حاكم على وجود الإنسان ان عدم وجود حاكم على وجود مسألة بالية، والقرآن يبين بأن هناك إنسانين: انساناً يتحكم فيه شركاء متشاكسون، وأخر له مالك واحد حكيم، وهذا المالك لا يتفق مع غيره فحسب، بل يتفق مع مملوكه أيضاً. لاحظوا مدى الفرق بين هذين الإنسانين.

وفي هذا المجال تتواجد وحدة العناصر النفسية التي يكون التوحيد في نفس الإنسان أول آثارها. إذاً فإنَّ نتيجة بحثنا هي: إنَّ للتوحيد آثاراً على نفس الإنسان، منها:

١ ـ إنَّ التوحيد يوجد الوحدة والتنسيق في نفس الإنسان.

٢ ـ أما في المجتمع، فإنَّ القرآن يريد أنْ يقول بأنَّ حاكمية القوة الواحدة على المجتمع هي التي أوجدت هذا الشكل من الرؤية الكونية، بل انه يعتقد بأنَّ الإيمان هو الذي يمكنه إيجاد مجتمع يقوم على أساس الوحدة الإلّهية (لا الوحدة الإنسانية) التي يسودها حكم الله.

المحاضرة الثالثة

قلنا في الحاضرتين الأولى والثانية إن القرآن الكريم يقسَّم البشر الى قسمين: قسم يتحكم الفكر فيهم، وتقوم سائـر شؤون حيـاتهم على أساس إيماني ثابت بحيث إن إيمانهم الراسخ والثابت يطغى على جميع شؤون حياتهم الأُخرى. وقد سمَّينا هؤلاء بالمنطقيين والعقليين، وقسم آخر لم يصلوا إلى حد البلوغ المنطقي والعقلي، ولا يستند إيمانهـم إلـى الإستدلال واليقين، بل تنشأ أفكارهم من سلسلة من المبادىء والعلل التي تفتقر إلى الأُسس، ويشكل هـؤلاء الأكثـرية مـن بين أفراد البشر، وتكون أفكارهم العوبة لسائر شؤون حياتهـم. ولـذلك فإن القرآن الكريم يرفض النظرية القائلة بتبعية الفكر لشؤون الحياة الأُخرى بصورة مطلقة كما يرفض النظرية القائلة بأصالة وتقدم الفكر على سائر شؤون الحياة بصورة مطلقة.

وقلنـا أيضـاً ان القرآن بيَّن أُسس الأفكار، كما بيَّن التصورات التـي تفتقر إلى الأُسس، وبذلك تقدَّم القرآن على جميع مفكري العالـم.

إنَّ أحد مبادىء التصـورات الخاطئـة للإنسان (أي

التصورات التي تفتقر إلى الأُسس وتتعرض إلى التغيير والتحول) هو استخدامه الظنَّ بدلاً من العلم واليقين! فيما يصر القرآن على اتباع العلم واليقين فقط.

هذا ما تطرقنا إليه خلال المحاضرتين السابقتين.
كما يذكر القرآن مصادر أُخرى للأفكار التي تفتقر إلى الأُسس، ويشبهها بالشجرة التي لا جذور لها والتقليد هو من جملة هذه المصادر.

وبديهي أن القرآن لا يصف هذا المصدر بالتقليد، وإنما يعبِّر عنه بـ (الطاعة العمياء للأسلاف) وهذا موضوع أكَّد عليه القرآن كثيراً، واعتبره منشأ انحراف وخطأ البشر وانتقده بشدة. يقول القرآن بأَنَّ هؤلاء يقولون: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ﴾[1].

ويسمى ذلك بتعبير اليوم اتِّباع التقاليد (سواء أكان هذا التعبير صحيحاً أم خطأ أو استطعنا أو لم نستطع إيجاد تعبير له لا شأن لنا في ذلك، لكن على أي حال فإنَّ هذه الكلمة شائعة).

والقرآن الكريم يدين اتباع السنن. وهذا لا يعني أنه يؤيد الأفكار التي تقف ضد اتِّباع السنن، فهو يرفض هاتين الفكرتين. ولمَ يرفضهما؟ الجواب: لأنه يؤيد اتباع العقل والمنطق فقط.

---

(١) الزخرف ـ ٢٢.

ولماذا يدين البشر الذين يتَّبعون السنن القديمة كما فعل أسلافهم؟ الجواب: لأن آباء وأجداد هؤلاء كانوا على خطأ ومفتقرين إلى العقل والشعور. والذين يقولون إنَّ أجدادنا كانوا يفعلون كذا وكذا، علنيا أنْ نتَّبع سننهم فهم على خطأ. يقول القرآن: **﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً﴾**[1].

فإذا كان آباؤهم يفعلون هكذا وهم يرون أن هذا العمل ليس صحيحا ودليل على حماقة أسلافهم، فلماذا يجددون هذه الحماقة؟ انهم يرتكبون حماقة حين يسعون إلى أحياء هذه السنن.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فانَّ القرآن لا يرفض جميع السنن. على سبيل المثال ان قسماً من الناس يميلون نحو التجديد، فهل ان الميل نحو التجديد يعتبر صحيحاً؟ كلا ان ذلك لا يعتبر صحيحاً، بمعنى ان كل شيء جديد لا يدل على النمو والتكامل والتقدم، لأن كل قديم كان جديداً في بداية أمره، وكل سُنَّة حمقاء كانت حديثة في يوم ما، فهل انها كانت صحيحة عندما كانت حديثة حتى تكون سيئة الآن؟ كلا! انها خاطئة حتى عندما كانت حديثة.

ويحث القرآن على احياء الحقيقة والعقل

---

(١) البقرة ـ ١٧٠.

والمنطق لدى الإنسان، ثم تقويم السنن بمعيار العقل والحقيقة لمعرفة ما إذا كانت حسنة أو سيئة. فإذا كانت صحيحة أمكن اتباعها، وإذا كانت خاطئة فلا بُدَّ من نبذها حتى وإن كانت متبعة من قبل الأسلاف. لكن كيف الحال بالنسبة للأمور الحديثة؟

إنَّ الأُمور الحديثة شأنها شأن القديمة لا بُدَّ وأنْ تقاس بالعقل والنقد والحقيقة (فكل جديد ليس دليلاً على الحقيقة) إذ من الواجب معرفة صحة أو خطأ الشيء الجديد؟ فإذا كان ذلك الشيء الجديد صحيحاً، فمن الممكن اتباعه وإلاَّ فلا.

إنَّ بعض الناس يبحثون عن أحدث الأشياء الموجودة في أوروبا مثلاً. . .، يبحثون عن أحدث الأحذية والملابس والقبعات والموجودة خلال السنة، فإذا سمعوا بأزياء حديثة سارعوا لشرائها، فهم بعملهم هذا يحكمون على أنفسهم بأنهم يفتقرون إلى الذوق والفكر، ويقولون أنَّ أفكارنا وأذواقنا وعقولنا ليست مقاييس، لأنَّ ما يبتكره المصممون الفرنسيون (على سبيل المثال) هو الصحيح!

وابتكار الموضة يعتبر من المكائد الشيطانية للعالم الرأسمالي في مجال زيادة الإستهلاك، فالعالم الرأسمالي يستخدم آلاف المكائد من أجل تقييد الشعوب المستهلكة. وتعتبر الموضة التي يأتي المصممون إحدى هذه المكائد، فهؤلاء المستغلون بنفذون برنامجاً استعمارياً لبيع

منتجات مصانعهم (سواء أكانت من المنسوجات أم من غير المنسوجات) فإن لم تُبَعْ، توقفت مصانعهم. ومن هنا كان لا بُدَّ من استمرار دوران عجلة مصانعهم. وهؤلاء يرون أنفسهم ملزمين بأن ينتجوا من جهة، وتُستهلك منتجاتهم من جهة أخرى ثم يقوموا بتهيئة المواد الخام من أجل الإنتاج مرة أخرى.

إنَّ عجلة الإنتاج ليست كأرض زراعية يمكن الحفاظ عليها، انها تشبه قصة الشخص الذي يسخِّر الجن، إذْ لا بُدَّ له من أن يجعل المسخَّر منشغلاً وإلاَّ مزَّقه الجن. فما دام الجنُّ منشغلاً فهو هادىء، ولو لم يكن هناك عمل فلا بُدَّ من تشغيله كأنْ يؤمر بنقل تل رملي إلى مكان آخر (وبالطبع فانَّ هذه القصة تعتبر من الأساطير).

والجن في هذه القصة تبدَّل اليوم إلى ماكنة، أي ان الماكنة لا بُدَّ لها أن تنتج ويُستهلكَ انتاجُها. ولو توقف الإستهلاك لمدة ستة أشهر في النظام الرأسمالي، لانهار صرح هذا النظام على رأس صاحبه. ولذلك يستخدم هؤلاء أنواع المكائد والوسائل ومنها انتاج أنواع الأحذية والملابس بصورة مستمرة لكي نستهلك منتجاتهم. وهذا يعني أنْ نكدَّ ونكدح لندخل نقودنا في جيوب هؤلاء الجشعين.

وهذه خدعة ناتجة عن العبادة اللامنطقية للأشياء الجديدة. فحب الإنسان للأشياء الجديدة يجب أنْ يكون

ناتجاً عن أفضلية تلك الأشياء على مثيلاتها السابقة . ولكن يجب أنْ لا يكـون حبـه لها لمجرد أنها جديدة. لاحظوا الأقمشة مثلاً، ففي بعض الأحيان تكون الأقمشة المنتجة أقل جودة من مثيلاتها في السنين السابقة، فهل يجب أن نقبل الشيء الرديء المنتج لكونه أُنتج حديثاً ونترك الشيء الجيـد المنتج قبـل ثلاث سنـوات لكونه قديماً؟ كلا هذا ليس صحيحاً.

والتقليد الذي ينبذه القرآن معناه اتباع السنن بصورة غيـر منطقية ودون الاستناد إلى أي معيار. فالقرآن يؤكد بطلان هذا النوع من التقليد، ويعتبره أحد أسباب انحراف البشر.

أنَّ كـل الأنبيـاء حـاربـوا اتِّبـاع السنـن أو التقـاليـد الخاطئة. . . كانوا يرغبون في أن تكون للبشر حرية فكرية، لأنَّ الإنسان الذي يتمتع بحرية فكرية لا يجعل من اتِّباع سُنن أسلافه ملاكاً لعمله.

ومن الأُمور الأُخرى التي يعتبرها القرآن من عوامل الإنحـراف والخطايـا والتصـورات الخاطئة، هو اتباع الأكابر. وهناك فرق بين اتِّباع الأكابر واتباع القدماء، ذلك أن كل شيءٍ يقدم به العهد يتخذ طابع التقديس. وما أنْ يصبـح سُنـةً حتـى يتخذ طابعاً مقدساً، سواء أكان هؤلاء الأفراد أكابر في نظرنا أو لم يكونوا.

وفي كل مجتمع يبرز أفراد في مجال معين فمثلاً

يبرز البعض منهم في المجال السياسي فيعتبرونهم أبطالاً سياسيين، أو يبرزون في المجال العلمي أو الرياضي، فيما يبرز قسم آخر في المجال الفني. فهؤلاء يعتبرون أبطالاً في مجتمعهم، وتتوجه إليهم الأنظار ويبدأ البعض بتقليدهم. وهذا النوع من التقليد لا يعتبر تقليداً للأسلاف، بل هو تقليد للأكابر. انهم يتَّبعون أفكار وكلام الأكابر لأنهم عظماء لا لكون عملهم أو كلامهم منطقياً. لكن طالب العلوم الدينية عندما يعيش في محيط يتواجد فيه على سبيل المثال روحاني عظيم كالمرحوم آية الله البروجردي، وقام الأخير بعمل ما وفق ما يقتضيه اجتهاده، فعلى طالب العلم الذي لَم يصل إلى مرحلة الإجتهاد ان يتَّبع مثل هذا الشخص. ولكن لنفترض ان المرحوم آية الله البروجردي كان ينتخب لوناً ما لملابسه أو كان يضع عباءته على كتفه بشكل معين. فإنَّ تقليد طالب العلم لأستاذه من هذه الناحية ليس صحيحاً.

ومن الملاحظ أنَّ الكثير من الشباب يقلدون حركات بعض الأبطال الرياضيين، كما يقلدون الفنانين جهلاً.

والتقليد في الأمور الصغيرة ليس أمراً خطيراً، ولكن تقليد الكبراء في الأمور المهمة أمر خطير يدينه القرآن ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا من الَّذينَ اتَّبَعُوا. . . ﴾[1].

وعندما يحين يوم القيامة يُسأل بعض الناس عن

---

(١) البقرة ـ ١٦٦.

سبب انحرافهم عن الصراط السوي، فيجيبون قائلين: ﴿رَبَّنا إنَّا اطعنا سادتَنَا وكُبَراءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاَ﴾[1]

لكن هذا العذر غير مقبول عند الباري تعالى، لأنَّ هؤلاء لم يحكموا منطقهم وعقولهم في اتِّباعهم لأقوال وأفعال الكبراء. ومن العوامل المهمة في زلل الإنسان، والتي ذكرت في القرآن مسألة اتباع هوى النفس، وهي مسألة مهمة جداً، ذلك أن الإنسان يتقبَّل الكثير من التصورات تبعاً لهواه لا تبعاً لمنطقه. ومن المستحسن أن نضرب مثلاً يتعلق باتِّباع الهوى في الشؤون السياسية والإجتماعية، فعندما رشَّح كندي نفسه لرئاسة الجمهورية في أميركا، كتبت إحدى الصحف الصادرة آنذاك أنَّ أحد الناخبين وزوجته سُئلا عن سبب انتخابهما لكندي، فأجاب الرجل بأنَّ سبب انتخابه لكندي يعود إلى اعجابه بجمال زوجة كندي! أما المرأة فأجابت: إنَّ سبب انتخابها لكندي يعود إلى اعجابها بهندامِه وجماله!

هذا المثال يعتبر أحد الأمثلة التي تتعلق بالشؤون السياسية، ولذلك فقد يحل هوى النفس محل المنطَق في عمل ما. وهناك أمثلة كثيرة في اتِّباع الإنسان ولا تتلاءم مع منطقه وعقله ودينه، ونتيجة لتلاؤم هذه الأُمور مع هواه فانه يؤطرها بأُطر دينية.

---

(١) الأحزاب ـ ٦٧.

إنَّ آية الله البروجردي الذي كان قد تسلم المرجعية بعد وفاة المرحوم آية الله الأصفهاني، دعا جميع مسؤولي المواكب الحسينية الموجودة في قم في اليوم السادس أو السابع من شهر محرم للحضور في منزله وسألهم عن المرجع الذي يقلدونه فأجابوا بأنهم يقلدونه هو(البروجردي) فقال لهم: في رأيي ان الكثير من الأعمال التي تقومون بها في مواكب العزاء ليست صحيحة، فأطرق الجميع برؤوسهم (انهم كانوا في الواقع يريدون أن يكون يوم عاشوراء يوم استعراض وتسلية ويوم عرض للفنون) وبعد هنيهة قال أحدهم للبروجردي: سيدنا اننا نقلدك في ٣٥٣ يوماً من أيام السنة القمرية التي تتكون من ٣٥٤ يوماً، ولا نقلدك في يوم واحد!! ﴿**إنْ يَتَّبعون إلَّا الظَّنَّ وما تهوى الأنْفُسُ**...﴾[(١)].

وعندما يتَّبع الإنسان هواه، فإنَّ عمله يصبح متناقضاً مع منطقه وحتى مع الشريعة ومع فتوى مرجع التقليد. أضف إلى ذلك أنَّ اتباع الإنسان لهواه يوقعه لا محالة في آلاف الأخطاء التي قد تؤدي إلى إحداث ثورة فكرية. فعندما يذهب الطفل إلى المدرسة ويتعلم بعض الشيء، يبدأ بالسخرية من أفكار وتصورات والديه، وفجأة تذهب أفكار الوالدين وتصوراتهم أدراج الرياح، فينقلب المجتمع، فلا يأبه أفراده بالأفكار القديمة.

---

(١) النجم ـ ٢٣.

ولكـن كيف تتغير مثل هذه الأفكار بتغير الأنظمية الاجتماعية؟ الجواب منطقي.

لقد بيَّنا في البحث الماضي أن القرآن قسَّم الأفكار الى افكـار متينـة يمكـن الإستنـاد إليها في جميع شؤون الحياة، وأخرى تفتقر إلى جذور ويذمها القرآن الكريم.

كما يضرب القرآن مثلاً آخر رغم أنه لم يذكر ذلك على شكل مثال، إلا أن سياق الأية يدلُّ على ذلك، فقد جاء في سورة التوبة: **﴿أفَمَنْ أسَّسَ بُنْيانَهُ على تَقْوَىً مِنَ اللهِ ورِضْوانٍ خيْرٌ أمْ مَنْ أَسَّسَ بُنيانه على شفا جُرُفٍ هارٍ فانْهَارَ بِهِ في نَارِ جَهَنَّمَ. . . ﴾**[1].

في هذه الآية يذكر القرآن صنفين من البشر: الأول ترتكـز أعمالهـم على تقوى الله ورضاه (ان تعبير البنيان الشائع في هـذه الأيـام مـأخوذ من القرآن). والثاني كما ذكرته الآية بقولها: **﴿. . . أمْ مَنْ أسس. . . ﴾**.

إنَّ اعـجـاز القـرآن لـعجيـب. . . . . فلقـد نـزل قبل ١٤٠٠ سنة، وكان يتحدث بشكل يتضح من خلاله انه يعرف أي الأقوال ستطرح في المستقبل، ولذلك فانه يتكلم بمنطق هؤلاء البشر، إذْ يقول لهم: **﴿أفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيانَه على تقوىً مِنَ اللهِ ورِضْوانٍ خَيْرٌ. . . ﴾ ﴿. . . أم**

---

(١) التوبة ـ ١٠٩.

مَنْ أَسَّسَ بُنْيانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هارٍ فانهارَ به في نارِ جَهَنَّمَ. . . ﴾.

عندما تنحدر المياه بشدة من منابعها في فصل الربيع متجهة إلى الأنهار نراها تؤثر في شواطىء تلك الأنهار فتجرف المناطق التي تصطدم بها خصوصاً عند المنعطفات فيصبح جرف النهر مجوفاً تشكل الطبقة العليا المتصلة بالأرض منه سقفاً سميكاً يظهر للرائي وكأنه أرض صلبة لاتتأثر بمرور شخص أو عدة اشخاص من فوقه لكنه ينهار عندما تمر حافلة أو شاحنة محملة. فلو شيدت عمارة سكنية فوق هذا الجرف فان العمارة ستنهار كلها في النهر ويتكبد صاحبها خسائر فادحة لعدم وجود أساس متين ترتكز عليه هذه العمارة. والقرآن الكريم يشبه النصف الثاني من البشر بالعمارة المقامة على ذلك الجرف الهاري إذ إنهم يقيمون حياتهم على أساس هش ينحدر بهم إلى نار جهنم. ﴿. . . **أَمْ مَنْ أَسَّسَ بنيانه على شفا جرفٍ هارٍ فانهارَ به في نارِ جَهَنَّمَ. . . ﴾.**

يقال إن شخصاً كان ينكر يوم القيامة والسؤال في القبر، حتى جاء أجله. وبعد موته رآه شخص في المنام، فسأله قائلاً: إنك كنت تنكر السؤال في القبر بعد الموت، والآن وقد متَّ، فقل لي هل سُئلت في القبر؟ فأجاب الميّت: كلا لقد ذهبت إلى جهنم مباشرة. إنَّ الآيتين الآنفتين تذكران مرتكزين لشخصية الإنسان:

المرتكز الأول: الأفكار والتصورات المنطقية ذات الدلالات والبراهين.

المرتكز الثاني: الإرادة الإنسانية والأخلاقية. وليس المقصود هنا ميول الإنسان وشوقه وشهوته المتواجدة حتى في الحيوانات. فالإنسان يختلف عن الحيوان من حيث الشخصية، إذْ له تصورات وإرادة. ولكن متى تترسخ هذه الإرادة؟

الجواب: عندما تلتحم مع التقوى الإلهية. حسب المفهوم القرآني تعني السيطرة على النفس. فلو توجَّه الإنسان نحو الله لترسخت تقواه.

فكر الإنسان وتصوره يشكلان نصف شخصيته:

﴿ألم تَرَ كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء﴾.

ـ إنَّ الإيمان بالله يعتبر نقطة أساسية في مرحلة التصور عند الإنسان، كما تشكل الإرادة الإنسانية النصف الآخر من شخصيته. وهذه الإرادة لا تتخذ طابعها الحقيقي إلاَّ بعد اتصافها بتقوى الله وطلب رضاه: **﴿أَفَمَنْ أسَّسَ بُنْيانَه على تقوىً مِنَ اللهِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هارٍ فانهارَ بِهِ فِي نار جَهَنَّمَ...﴾** إذن ما المقصود من الله في حياة الإنسان؟

الجواب: إنَّ الله يشكِّل حسب وجهة النظر القرآنية ركني الشخصية الإنسانية، وإذا ما شكَّل هذين الركنين أو المرتكزين يستندان إلى مرتكز آخر هو الإيمان بالله فقط.

والقرآن يرى أن جميع شؤون الإنسان قائمة على أساس هذين المرتكزين، وهو لا يريد بذلك أن يقول ان كل أفراد البشر هم كذلك. إنه يريد أن يصنع من الإنسان موجوداً سامياً وكاملاً. ويقصد بالانسان الكامل، الإنسان الذي يرتكز على أساس إلهي، وتتشكل شخصيته من ركنين هما: التصور والإرادة اللذان يستند إليهما في كل شؤون حياته.

والقرآن أيضاً يريد إنساناً بهذه الصفات وهذا ما نعنيه في عبارة: الله في حياة الإنسان. انه لا يريد أن يقول إن كل أفراد البشر بنفس الصفات. وعندما يريد البعض أن يبدي وجهة نظره حول الإنسان، فانه ـ عادةً ـ يأخذ الإنسان الموجود بنظر الإعتبار، أي الإنسان الذي لا يتباين مع الحيوان، ولا يرى الإنسان الذي تصدق كلمة الإنسانية حوله.

والقرآن لا ينظر إلى الإنسان على أنه حيوان يمتلك غرائز حيوانية، بل ينظر إليه كإنسان له إستعدادات إنسانية... يريده إنساناً متكاملاً. وخلاصة القول ان رسالة الإسلام جاءت لبناء مثل هذا الإنسان.



المحاضرة الرابعة

التأثير الإجتماعي للتوحيد

القرآن الكريم له أُسلوب خاص في ذكر الحقائق بهيئة أمثال وتشبهات، وخاصة في دعوة الناس للتدبر والتعمق في الهدف من هذه الأمثال والتشبيهات. فأحياناً يذكر مثالاً، ثم يدعو الناس للتدبر فيه، مؤكداً لهم أنَّ التدبر في ذلك المثل يزيد من معلوماتهم.

لقد تطرَّقنا في المحضرات الثلاث الماضية إلى موضوع «الله في حياة الإنسان» مستندين في بحوثنا إلى آية واحدة ألا وهي: **﴿ضَرَبَ ٱللهُ مَثَلاً رَجُلاً فيه شُرَكاءُ متشاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمَاً...﴾**[1].

وسنتناول في هذا القسم من البحث آية أُخرى من سورة ابراهيم تطرح نفس الموضوع بهيئة مثل، ونبحث في رأي القرآن الكريم الذي يتضمن ملاحظة دقيقة ومهمة للغاية نستطيع من خلاها الوصول ألى فلسفة إجتماعية عظيمة.

---

(١) الزمر ـ ٢٩.

ما هو التغيُّر؟

إنَّ كلمـة التغيُّر (التغيُّرات الإجتماعية) تستعمل كثيراً في هذه الأيام، وحياة البشر معرضة دائماً للتغيُّرات والتحولات التـي تكـون فـي بعض الأحيان بسيطة وتتم ببطء، والتي توجد في المجتمعات المريضة في أحيان أُخرى حالة من الركود والتوقف والسكون. واستناداً إلى دلائل خاصة (لا نـرى مـن الضرورة البحث فيها في الوقت الحاضر) فإنَّ حياة البشر هي حياة متغيِّرة، وهذا هو من خصائص الإنسان.

وهناك حيوانات أُخرى لها حياة إجتماعية قائمة على أُسس حضارة رفيعة مثل النحل ودود القز وبعض الأصناف من النمل. ومع ذلك يبقى هناك فارق أساسي وهو أنَّ تلك الحيوانات الإجتماعية لها حياة رتيبة، أي انه لم يطرأ منذ آلاف السنين أي تغيُّر على حياتها وتحضُّرها. على سبيل المثال انَّ نظام حياة النحل في الوقت الحاضر يشبه نظام الحيـاة قبـل خمسـة آلاف سنـة، بمعنـى أنَّ تحضـر هـذه الحيوانات باقٍ على حاله، أي أنـه لـم يتقـدم خطوة ولم يرجـع خطوة تذكر، ولم ينحرف لا إلى اليمين ولا إلـى اليسار. غـيـر أن الحيـاة الإجتماعيـة للإنسان هـي غيـر ذلك، إذ قلَّما نشاهد فيها التوقف. فهي تتقدم إلى الأمام في وقت، وتتأخر في وقت آخر، كما تسير في جهة اليسار مرة، وفي جهة اليمين مرة أُخرى وهكذا. . .

وإذا أخذنا قوماً ما بنظر الإعتبار، لاحظنا انه يتقدَّم مـرة ويتـأخر أُخـرى، حتى انه ينقرض ويزول في أحيان أخرى. أما إذا أخذنا المجتمع البشري ككل بنظر الإعتبار، رأينا أنَّ التغيُّرات التي تطرأ على هذا المجتمع إنما هي في جهة التكامل والنمو.

ما هي الثورة؟

هنـاك كـلمـة أُخرى تشمل مفهوم التغيُّر أيضاً، ألا وهي (الثورة). وهذه الكلمة لها عناصر تفتقر إليها كلمة (التغيُّر).

وتطـرأ علـى حيـاة البشر، تغيُّرات، تتم في بعض الأحيان على شكـل ثورات. وكل ثورة هي تغيُّر، ولكن ليس كـل تغيُّـر ثـورة. إذن متـى تطلـق كـلمـة (الثورة) على (التغيُّر)؟

الجواب: إنَّ الثورة تعني حدوث تغيُّر نتيجةً لانتفاض البشر وتمردهم على وضعٍ معين. وعندما لا يكون التغيُّر ثـوريـاً، فقـد تطرأ بعض التغيرات التدريجية، بحيث ان الناس لا يشعـرون انهـم يمرون بتغيُّر رغم انهم يتغيَّرون بالفعل. لكن الثورة عمل يتم عن وعي، وهي نوع من التمرد يظهر في الإنسان على وضع معين.

الثورة الأدبية

لو درسنا تاريخ الآداب مرحلة بعد أخرى، لرأينا ان الأدب الفارسي أو الأدب العربي مثلاً كان له في كل قرن وعهد ومرحلة لون وأسلوب معينان. على سبيل المثال ان الأدب قد لا يستخدم المفاهيم الإسلامية بكثرة في مرحلة من المراحل، وقد يستخدمها بكثرة في مرحلة أخرى. وفي بعض الأحيان يتم الإهتمام بالمسائل الحماسية، فيما يتم ـ في أحيان أُخرى ـ الإهتمام بالمسائل العرفانية. وقد حصلت جميع هذه التغيُّرات بصورة تدريجية، حيث لم يحدث في أي عصرٍ أنْ تمرد الادب على سابقه ـ ويمكن أنْ يكون قد حدث ـ لكننا لا نستطيع أن ننفيه بصورة كاملة.

وفي بعض الأحيان تحدث ثورة أدبية. والثورة الأدبية تعني التمرد على الآداب الموجودة، وتتم بوعي. ولست هنا بصدد إثبات صحة مثل هذه الثورة أو خطئها. إذْ أنَّ المهم هو أَنْ نعرف بأَنَّ الثورة تتباين مع التغيُّر. على سبيل المثال حصل بعد الثورة الدستورية في إيران نوع من الثورة الأدبية في النثر وكان من الطراز الأول، كما حدثت ثورة أخرى من الدرجة الثانية في الشعر، وقد دفعتا النثر والشعر إلى الأمام. أي انه حصل تمرد عن وعي في الأدب الفارسي على النثر والشعر السابقين. وهذا الأمر ليس مجرد تغيُّر فحسب، بل هو نوع من الانتفاض الواعي ضد الآداب

السابقة.

أنواع الثورات

الآن وبعد أنْ فهمنا معنى (الثورة) فاننا نتطرق إلى أنواعها.

إنّ الثورات التي تحدث في المجتمع البشري ليست واحدة، فهي على أنواع. على سبيل المثال ان النهضة الأدبية التي حدثت في أوروبا والمعروفة بالمرحلة بالرنساسية كانت في الواقع مرحلة للثورة العلمية والثورة الأدبية، وكانت نوعاً من التمرد الواعي ضد العلمْ والأدب اللذين كانا سائدين آنذاك.

الثورة الصناعية

حدثت في عالمنا ثورة، وفي الحقيقة حصل تمرد على الأوضاع الصناعية القديمة وظهر نظام صناعي جديد في زماننا - بهيئة ثورة - ترك بلا شك أثراً على جميع العالم.

والثورة الصناعية هي بدورها ثورة، ولكن من الناحية الفنية. فلما كان الإنسان فناناً ومبدعاً وخلّاقاً وموجوداً صناعياً ومنتجاً، فانه انتفض فيما سبق على ما صنعه بنفسه وآستبد له بشيءٍ آخر وأوجد تغييراً في الآلات، وبذلك ظهرت الثورة الصناعية.

الثورة الإجتماعية

وفي بعض الأحيان تكون الثورة، إجتماعية. ومع ذلك فان الثورات الإجتماعية غير متشابهة فيما بينها، ومن هنا يلزم فصلها عن بعضها.

وتحدث في العالم ثورات كثيرة تكون ماهية البعض منها ماهية انتقامية. ومثلِ هذه الثورات هي في الواقع تغيير في القوة الغضبية، مثلاً أنَّ أكثرية ساحقة من مجتمعٍ ما تعيش في حرمان وتتعرض للاعتداءات. مما تؤدي هذه الأمور إلى التأثير على معنوية تلك الأكثرية، وبذلك ينمو الغضب في نفوسها الى أنْ تثور في يوم ما على الأوضاع القائمة وتكون ماهية مثل هذه الثورة مَتمثلة بالدفاع عن الحقوق الذاتية. وتسمى هذه الثورات عادة بثورات القوة الغضبَية.

الثورة الوجداينة

أما النوع الآخر من الثورات، فهو الثورات العاطفية، أو ما يسمى بالثورات الوجدانية. فقد يحدث في بعض الأحيان أن تثور ضمائر مجتمعٍ ما نتيجة لأوضاع معينة. فمثلما يكون الإنسان ذا ضمير فان المجتمع له هو الآخر ضمير. ونحن نلاحظ أن بعض الأشخاص يحاسبون ضمائرهم في بعض الأوقات رغم قساوتهم المعروفة. على سبيل المثال انَّ الجلاوزة الذين هم أكثر الناس قساوة قد

تراهم في بعض الأحيان يمتنعون عن ممارسة العنف ضد الآخرين رغم انهم يميلون إلى العنف والظلم. والسبب في ذلك يعود إلى تحرك ضمائرهم.

وهناك رواية في وصف المغول وجنود جنكيزخان، لكنني لا أدري هل انها حقيقية أم مبالغ فيها (وقد تكون حقيقة فيما لو أخذنا بنظر الاعتبار ممارسات أولئك القوم).

يقال أنَّ جنكيزخان انتخب من بين جنوده مجموعة معينة، وشكَّل منها فرقة (كما هو الحال في يومنا هذا حيث يبحثون هنا وهناك عن أشخاص لا عاطفة لهم ولم يحسوا بالعاطفة، فيستخدمونهم مقابل مبالغ من المال، وبذلك يطيع هؤلاء جميع الأوامر الصادرة إليهم لأن ضمائرهم تكون ميتة) نعم يقال ان جنكيز شكل مثل هذه الفرقة. وتلك الفرقة جاءت إلى مدينة (بخارىٰ) فأضرمت النار فيها، ثم أقامت المجازر في مدن أُخرى، حتى وصلت إلى مدينة نيسابور في خرسان وأقامت فيها مجزرة كبيرة، حيث قتلت الرجال والنساء والأطفال والشيوخ ووصل الأمر بها إلى قتل الحيوانات أيضاً، بل وتخريب المدينة ومحوها من على وجه الأرض. وبعد أن انتهت من ممارستها الوحشية بدأ أفرادها يتحدث بعضهم مع البعض الآخر. وهنا التفت قائد الفرقة إلى أفرادها واستفسر عما إذا كان أحدهم قد تحرك ضميره خلال العمليات. فقال أحد الأشخاص: انني تألمت في أحد المشاهد. فسأله

القائد، أين؟ فأجابه قائلاً: انني دخلت على عائلة فقتلت جميع أفرادها، بعدها وقعت عيني على طفل رضيع. فسحبت الخنجر ووضعته على شفتيه ففتح فمه تصوراً منه أنَّ أُمه جاءت لترضعه. هذا المشهد أحزنني كثيراً، لكنني نفذت الأوامر في نهاية الأمر وقتلت ذلك الرضيع. وبعد أن أنهى حديثه قال القائد: أنت لا تنفع. ثم أمر بقتله. خلاصة الكلام انَّ الإنسان له وجدان أخلاقي، يحركه في بعض الأحيان.

وفي بعض الأوقات تمر المجتمعات بأوضاع تتحرك فيها مشاعرها وأحاسيسها. على سبيل المثال عندما تقع هزة أرضية في مكان ما يسارع الناس لنجدة المنكوبين ومدهم بالوسائل الضرورية، وهذا يسمى بـ (الثورة الوجدانية)، أي ان وجدان أو ضمير مجتمع ما يتحرك نحو الأعمال الصالحة والحسنة.

الثورة الاقتصادية

إنَّ بعض الثورات الاجتماعية هي ـ في الحقيقة ـ ثورات اقتصادية. فعندما تحدث ثورة في مجتمع ما ويتغير النظام الاقتصادي ويحل محله نظام جديد ـ مثل القضاء على النظام الرأسمالي واحلال النظام الاشتراكي محله ـ فإنَّ ذلك يعتبر ثورة، ولكنها ثورة تقوم على أساس نظام إجتماعي معين. ومثل هذه الثورة تطيح بالنظام

الاجتماعي القائم وتستبدله بنظام آخر.

وفي الثورات السياسية يسقط نظام ويحل محله نظام آخر، مثل الثورة الدستورية التي وقعت في ايران وأمثال تلك الثورة.

الثورة الفكرية أو الثقافية

إنَّ كل ما تحدثنا عنه كان مقدمة للموضوع التالي وهو أن أحد أنواع الثورات التي تحدث في المجتمعات البشرية هو الثورة الفكرية أو بتعبير آخر الثورة الثقافية. فماذا نعني بالثورة الفكرية والثقافية؟ نعني بذلك حدوث ثورة في المفاهيم الفكرية والعقلية عند البشر بحيث تتغير معاييرهم وتحل محلها معايير أُخرى وهكذا في الثورة الفكرية، فالثورة الفكرية تعتبر تمرداً على مجموعة من الأفكار والتصورات والمعارف والأمور التي كان فكر الإنسان يتقبلها - سابقاً - فهذا البنيان الفكري يتحرك فجأة من أساسه وينهار ويحل محله بنيان فكري جديد. ويدعى ذلك بالثورة الفكرية أو الثورة الثقافية. ويمكن تشبيه هذه الحالة ببناء قديم ومندرس يهدمه الإنسان ويبني محله بناءٍ جديداً ذا شكل وتصميم جديدين وقائماً على أُسس جديدة.

وفي هذا الصدد يطرح السؤال التالي نفسه، وهو: أيٌّ من هذه الثورات يتمتع بالأصالة؟

مما لا شك فيه أن لكل ثورة آثاراً متعددة. ومن

الممكن أَنْ تكون الثورة عاملاً في قيام ثورة أُخرى، إلاَّ أنَّ الكلام يدور حول النقطة التي تنطلق منها الثورة. فهل من المستحسن أنْ تنطلق الثورة من الناحية الفكرية، أي أَنْ تحـدث ثورة فكرية في المجتمع، لتغيير الأفكار القديمة الخاطئة، ومن ثم التوجه بعد ذلك إلى الثورات الإجتماعية والأخلاقية والاقتصادية والسياسية وغيرها أم من الأفضل القيام بثورة صناعية أو سياسية أو اقتصادية؟

قد تكون لكل مذهب وجهة نظر تختلف عن المذاهب الأخرى. وفي الحقيقة هناك نظريات مختلفة.

وليس هنـاك أدنى شك من أن التفكير في كل منها بصورة مجردة يعتبر أمراً غير صحيح، فإذا كانت هناك ثورة فكرية تفتقر إلى ثورة وجدانية، فانها ثورة غير مجدية، أي انَّ نتيجة ثورة كهذه ستكون وجود عدد من الأفراد الذين لهـم تطلعات فلسفية ولهم تفكير جيد ويتكلمون بصورة حسنة ولكنهم يفتقرون إلى الوجدان أو العاطفة أو الجاذبية القلبية. ومثل هذه المجتمعات مشبعة من الناحية الفكرية والعقلية، ولكنها مجتمعات غير مثمرة وبغض النظر عن هذا النقص فان المجتمع الذي يتمتع بالعلم ـ نسبياً ـ ويفتقر إلى العاطفة وليس له شعور قلبي هو مجتمع يعاني من نقص كبير، لذلك لا بُدَّ أنْ تكون الثورات متلازمة مع بعضها.

لنفرض ان إحدى الثورات كانت ذات طابع فكري وعاطفي، ولم تكن ذات طابع اقتصادي، أي انها لم

تغيـر النظـام الأقتصادي، وكانت ذات نظام ربوي مثلاً، وبتعبيـر الإمـام علـي (عليـه السلام) مجتمـع يضم أفراد متخمين من كثرة الأكل وآخرين منهكين من شدة الجوع، فـإنَّ هـذه الثـورة تـكـون غيـر مفيدة، إذْ لا بُدَّ أَنْ تكون الثورات مرتبطة مع بعضها البعض ولكن الكلام يدور حول معـرفة الثـورة الحقيقيـة والواقعية التي تعتبر في الحقيقة ثورة مثمرة، فهل يجب البدء من الناحية الفكرية؟ أم من الناحية الاقتصادية؟ من أين يجب أنْ تكون البداية؟ ومـا هـو السبب فـي عدم حصول الشعب الأيراني (الذي قام بثورة سياسية) على الدستورية التي ثار من أجلها؟

للإجابة على ذلك نقول إنَّ الصحف كتبت آنذاك أنَّ سبب ذلك يعود إلى أنَّ المجتمع الإيراني لم يكن متهيِّئاً من الناحية الفكرية لمثل هذا العمل، أي كان من المفروض تهيئـة أفكار الشعب. فلم يكن الشعب آنذاك يفهم معنى الاستبداد أو الدستورية، كانوا يقولون لهم بأَنَّ الدستورية أمـر حسن، فكـان أفـراد الشعب يقولون لهم بأي دليل؟ فيردون عليهـم بـأنَّ الدستورية إذا ما طبقت فانكم عندما تنهضون صباحاً ستجدون في بيوتكم أفضل أنواع اللحوم والأغذية وهكـذا ستكـون الحال ظهـراً وليلاً. إنَّ تصور أفراد الشعب عن الدستورية كان منحصراً في الخبز واللحم المشوي، وكـانوا لا يعرفـون شيئاً عنها، وبذلك لم تعط الثورة ثمارها.

الثورة في الفكر وفي الرؤية الكونية:

لقد أحدث الإسلام ثورة في جميع شؤون البشر، ورفع من شأن بعض القيم وسفَّه البعض الآخر منها. وهو يدعو قبل كل شيءٍ إلى ثورة فكرية (ليس في العلم فحسب، بل وفي الفكر أيضاً، أي النظرة الكونية) ولا بُدّ للإنسان أَنْ تكون له نظرة كونية صحيحة تقوم على أساس التوحيد النظري والعملي ومعرفة الله وعبادته، ويجب أَنْ تكون الثورات الأخرى فروعاً وأوراقاً وثماراً لهذه الشجرة (الثورة في النظرة الكونية). وحسب وجهة النظر القرآنية فان الضربات التي وجِّهت للإسلام كانت موجَّهة إلى جذوره، لذلك يلزم أَنْ تبقى الجذور سليمة. ولكن ماذا نعني بالجذور؟

يقول القرآن في الآيتين (٢٤، ٢٥) من سورة ابراهيم (عليه السلام): **﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُها ثابتٌ وَفَرْعُها في السَّماءِ * تؤتي أُكُلَها كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّها وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ الأمثالَ للنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرونَ﴾**[1] . أي مثل هذا الذي يضربه سبحانه وتعالى؟

الجواب: كلمة طيبة. والكلمة حسب المصطلح

---

(١) ابراهيم ـ ٢٤، ٢٥.

القراني ليست لفظا فقط، ويطلق الباري تعالى على الحقيقة التـي ذكـرت بهذا اللفظ اسم الكلمة. فهي حقيقة وكلمة طاهرة يشهد ويعترف ويقر بها الإنسان.

والقرآن يضرب مثلاً حول شجرة طاهرة ذات جذور متـأصلـة فـي أعمـاق الأرض تتغـذى مـن مـواد جيـدة وصالحة (كالماء أو الرطوبة) وجذورها تضرب في أعماق الأرض وجذعها وفروعها على الأرض. انها شجرة ذات جذور وجذع وثمار، لكنها ليست كباقي الأشجار المثمرة الأُخرى. طبقوا هذا المثل على شجرة كهذه، لا تعطي ثمارهـا فـي الخريـف أو الربيع فقط بل في جميع فصول السنة. ﴿**تُؤتي أُكُلَها كلَّ حيْنٍ بِإذْنِ رَبِّها**...﴾.

إنها شجرة تعطي ثمارهـا بإذْنِ الله وبارادته في كل حين. شجرة لها جذور في أعماق الأرض وفروعهـا فـي السماء، وتعطي ثماراً نظيفة طاهرة في جميع الفصول، ثم يقول جلَّ شأنه: ﴿... **وَيَضْرِبُ ٱللهُ الأمثال للنّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذكَّرونَ**﴾.

ان الله يضرب هذه الأمثال للناس لكي يتذكروا. والتـذكـر وفـق المفهوم القرآني هو غير التفكر والتعلم. فـالفكـر والتعلـم يعنيـان تعـلم الإنسان للأشيـاء التي لا يعرفها، غير أن التذكر هو اليقظة، وهو أمر مـوجود في أعماق الإنسان وروحه وفطرته (وهذا ليس موضوعاً جديداً يقال للإنسان).

يجب ايقاظ الروح والنفس قبل كل شيء ويضرب الله تعالى هذا المثل للناس لكي يتيقظوا ويحذروا.

ماذا يريد القرآن الكريم ان يبين في هذه الآية؟ إنَّ الكلمة الطيبة المذكورة في هذه الآية هي التوحيد... هي الله. فالقرآن يعتقد بضرورة إحياء التصورات الإلهية في المجتمعات البشرية والتي تعتبر حقيقة أصلية موجودة في عمق الإنسان وضميره وفطرته. ويجب أن يبدأ فلاح البشر من هذا المنطلق، إذ انَّ بقية الأمور تعتبر أموراً هامشية تستمد قوتها وتغذيها منه.

بعثة الرسول الأعظم (ص) والدعوة للتوحيد

من هنا نرى أنَّ الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) عندما بعث للناس، كانت بعثته شاملة (وهذا درس كبير) إذْ كانت تشمل الصلاة والصوم والحج والزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد وتنظيم قوانين المعاملات والبيع والشراء والايجار وتنظيم نظام العائلة وقوانين النكاح والطلاق والارث والقوانين الاقتصادية والسياسية والاحسان والعفو والوجدان، والوجدان الأخلاقي وما إلى ذلك من أمور أخرى. ولكن لِنرَ من أين بدأ الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) عمله؟ هل سلك سبيل الوجدان الأخلاقي أولاً، أي انه صرح بعد بعثته مباشرة بأنَّ رسالته أخلاقية، وأمر الناس بالذهاب سوية

لعيادة المرضى ومعالجتهم؟

إنَّ كل هذه الأُمور موجودة في برنامج الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) إلاَّ أنها لم تكن المنطلق الذي انطلق منه، كما لم يبدأ رسالته يحثِ الناس على مكافحة المرابين أو حثهم على الصلاة أو الصيام أو الحج قبل إزالة الأصنام من على جدار الكعبة، ولم يبدأ كذلك من تنظيم العائلة أو من مسألة النكاح أو قوانين النفقة أو النشوز . . . كلا ان عمل الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) يشبه القصيدة الشعرية التي يعرف مضمونها من مطلعها. أنَّ أول جملة قالها الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) للناس بعد بعثته كانت: «قولوا لا إله إلاّ الله تفلحوا».

لقد بدأ الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) ثورته بثورة فكرية ونظرة كونية أساسية، أي من فكر يمكن أن يهز النظرة الكونية للإنسان من جذورها، ولم يبتدىء ثورته بثورة علمية. ولأنَّ الثورة العلمية أصغر من أن تؤدي هذا الدور. فإذا كان (صلى الله عليه وآله وسلم) قد قام بثورة رياضية، فهناك الكثير ممن أقدموا على هذا الأمر، على سبيل المثال دحض البعض منهم نظرية اقليدس، وجاء بنظرية أخرى وهكذا دواليك. لكنَّ هذه الأمور لم تكن لتعطي مثل هذه الثمار. وإذا كان (صلى الله عليه وآله وسلم) قد قام بثورة فيزيائية، وقال بأنَّ العناصر التي لم تكن لليوم تتجاوز الآربعة، فانها اليوم أكثر من عشرة، فان

ثورته لم يكن لها أثر وصدى. لماذا؟ لأنَّ هذه الأُمور يجب أَنْ تكون ضمن النتائج وليس ضمن الأسس والجذور. وإذا كان (صلى الله عليه وآله وسلم) قد قام بثورة في علم الأحياء، لما كانت تلك الثورة جذرية. انه قام بثورة فكرية ـ في نقطة حساسة من فكر الإنسان ـ بحيث يمكنها أَنْ تؤدي إلى نتائج أُخرى. وما أن تقول (الله) حتى يتبع ذلك الاحسان والعدالة وعدم عبادة الأصنام أو أخذ الربا أو ممارسة الظلم وآلاف الأمور الأُخرى.

لقد بدأ (صلى الله عليه وآله وسلم) ثورته من الفكر. والإسلام لا يعتبر فكر البشر ظلاً للنظام الإجتماعي. انه لا يقول أرني النظام الإجتماعي لأبيِّن لك فكره. أنه يمنح الأصالة للإنسان من هذه الناحية، أي أنه يعتقد بأنَّ الإنسان إذا ما أوجد في نفسه ثورة فكرية صحيحة تستند إلى أعمق الكلمات وأكثرها أصالةً، فإنَّ جميع العالم ـ أي عالم الإنسانية ـ سيهتز. **﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُها ثابِتٌ وفرعُها في السَّماءِ﴾**.

إنَّ المذاهب التي كانت تعتبر الثورات الثقافية أموراً هامشية وطفيلية ناتجة من النظم الإقتصادية، سرعان ما عرفت أنها على خطأ، ويجب أَنْ تمنح أصالة للثورة الثقافية. ورغم أن أنظمتها هي أنظمة إشتراكية لكنها توصلت إلى هذه النتيجة وهي أنَّ المجتمع يجب أن يكون ـ دائماً ـ بحالة ثورة ثقافية، فإذا فقد المجتمع

ثورته الثقافية فان ثورته الإقتصادية الإشتراكية ستنهار وهذا معناه قبول مبدأ أصالة الفكر والثقافة والروح وأصالة الإنسان، أي نفي أقوال السالفين.

والاستناد إلى الثورة الثقافية ومواصلتها هما أمران أساسيان، خلافاً لما كان يتصوره القدماء وهذا يعني - إلى حدٍ ما - الرجوع إلى النظرية الإسلامية التي تستند إلى هذه المسألة، أي انَّ بداية العمل تكون من هذا المنطلق.

لذلك إذا أردنا أن يكون هناك مشروع من أجل إصلاح المجتمع الإسلامي، يقوم على أساس الإسلام ويكون مثالاً للمجتمع الإسلامي، وكذلك إذا أردنا أن تكون هناك ثورة واقعية في مجتمعنا الإسلامي، فيجب أن نتوجه نحو التوحيد الإسلامي، ونقارن مجتمعنا به، لنعي مدى الشرك الذي تزخر به حياتنا! وكيف اننا نردد أسم الله كثيراً دون أن يكون لمعناه وجود في حياتنا!

إذاً لنرجع إلى الحق ونتب (توبة واقعية)، لنرجع إلى التوحيد بمعناه الحقيقي لنصبح كالموحدين من المسلمين الذين عاشوا في عصر صدر الإسلام. من أين بدأ الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) دعوته؟ انه لم يقم بثورة صناعية أو أدبية. ان ثورته الأدبية كانت في الحقيقة تتمثل بالثورة الأدبية للقرآن، كما انه لم يبدأ دعوته بثورة إقتصادية أو ثورة سياسية، بل بثورة فكرية للقرآن تبعتها هذه الأمور. لقد تمكّنت هذه الثورة من

إنزال وتحطيم الأصنام التي كانت موجودة في الكعبة.
وعندما سقطت تلك الأصنام، سقطت معها منهجية أبي سفيان وأبي جهل وأبي لهب ومن كانوا على شاكلتهم، فلم يكن بمقدورهم أَنْ يستمروا في منهجيتهم. لذلك يريد الإسلام من الإنسان أَن يدخل الله في حياته، وإذا دخل الباري عزَّ وجلَّ في حياة الإنسان، أصبح كل شيء صحيحاً شريطة أَن يكون أسلوب الإدخال صحيحاً. ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُها ثابِتٌ وفرعُها في السَّماءِ تُؤتي أُكُلَها كلَّ حيْنٍ بإذْنِ رَبِّها. . . ﴾

ما أعظم معنى هذه الآية! انها تقول ما معناه: أَيُّها الإنسان حافظ على سلامة هذه الشجرة، إسقها وأحذر أَن تجف جذورها في وجودك، إحذر من وصول الآفات إلى جذورها. إنَّ واجبك هو صيانة هذه الشجرة فقط، فإذا حافظت عليها فانك ستجني منها ثماراً إجتماعية وأخلاقية، وستعطيك ثمارها كلَّ حين وهذا يعني استمرار الثورة الثقافية كما يطلق على ذلك. يقول القرآن الكريم: ﴿تُؤتي أُكُلَها كلَّ حيْنٍ بِإِذْنِ رَبِّها. . . ﴾.
وهذه الشجرة ليست تؤتي ثمارها في فصل معين، وهي ليست شجرة ذات جذور تتآكل وتصبح هرمة. وعلى الإنسان بالمقابل أَنْ يحافظ عليها، فهي شجرة خالدة تؤتي أُكُلَها كل حين.

لقد كان الامام علي (عليه السلام) رجلاً ثورياً،

ولكننا عندما نتطلع إلى شخصيته، نشاهد أَنَّ أَعظم الثورات التي قام بها هي ثورته الروحية، والفكرية، والإلهية. انه (عليه السلام) لم ينس مسؤوليته للحظة واحدة، لأنه لم ينس ربه لحظة واحدة، لأنه لم ينس الله، ولم يعبد غيره ولو للحظة واحدة، أي انَّ كل ما كان عند الامام علي (عليه السلام) كان مستلهماً من توحيده.

وقد لا يأبه البعض عندما يدور الكلام عن عبادات علي (عليه السلام) بل ويتساءل عن فائدتها، وعن السبب الذي كان يدفع الامام (عليه السلام) للقيام بهذا العمل؟ ويتساءل كذلك قائلاً: أما كان من الأفضل أن يقضي الامام علي (عليه السلام) وقته الذي كان مخصصاً لعبادته في مساعدة المحرومين وفي الخدمات الاجتماعية؟ كلا، فهذا الكلام خاطىء، لأنَّ العبادة بمعناها الواقعي تعني إرواء جذور هذه الشجرة.

وهناك من يتساءل عن فائدة صلاتهم بالنسبة لله؟ انهم يتصورن أَنَّ صلاتهم يجب أن تكون ذات فائدة بالنسبة لله. ولكن على العكس انها تفيدهم ولا تفيد الله. ان عبوديتنا لا تفيد الله، بل تفيدنا نحن بالذات. وان العبادة وذكر الحق والأنين وذرف الدموع ومناصرة الحق تعني اغناء جذور شجرة التوحيد واحياءها والمحافظة عليها باعتبارها شجرة الأنسانية. ﴿... **قل الله ثم ذرهم** ...﴾[1].

---

(١) الأنعام ـ ٩١.

لقد كان كل شيءٍ عن أهل البيت (عليهم السلام) إلهياً ومستلهماً من عند الله تعالى، وكما أَنَّ عالم الوجود قد ظهر بأمر من الله سبحانه وتعالى، فإن مصدر جميع خيرات الانسان في نظامه الروحي هو الإيمان بالله.

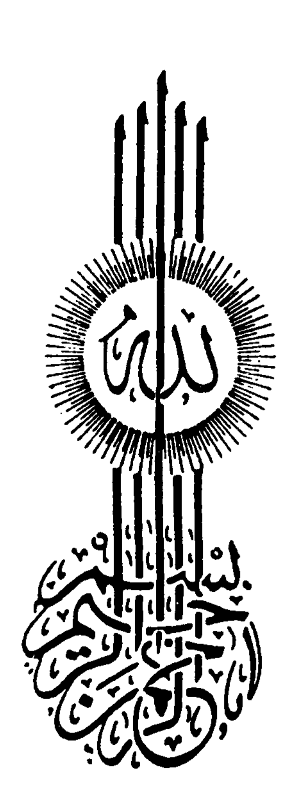
ينقل عن الامام الحسن المجتبى (عليه السلام) انه قال ما معناه: في إحدى الليالي رأيت والدتي فاطمة الزهراء (عليها السلام) جالسة على سجادتها ومنهمكة في الدعاء، فأصغيت لها، فسمعتها تدعو للآخرين، ولكنها لا تدعو لنفسها، وفي الصباح سألتها: لماذا كنت الليلة الماضية تدعين للكل ولكنك لم تدعي لنفسك؟ فقالت: «يا بني الجار ثم الدار».

أي انَّ المسلم يفكر بالآخرين قبل أن يفكر بنفسه.
إِنَّ دعاء فاطمة الزهراء (عليها السلام) ينطبق مع أعمالها الأُخرى، ففي أحد الأيام عندما كانت صائمة مع علي (عليه السلام) و أطفالها الآخرين (وعندما كان علي وفاطمة (عليهما السلام) يعيشان في أتعس الظروف، وكانت المدينة المنورة تعاني من المجاعة والقحط، وكان علي (عليه السلام) يهب ما كان يحصل عليه إلى الآخرين، إِذْ كان يعمل ويرتزق نهاراً ويعود في الليل ليعيش مع عائلته على ما ارتزقه نهاراً، وكان يهيىء الدقيق ويهيء الخبز، وكانت الزهراء (عليها السلام) تطحن الشعير وتصيِّر الدقيق عجيناً وتخبزه بيدها على شكل أرغفة وتهيء

ذلك لوقت الإفطار) آن وقت الإمتحان الإلٓهي. ففي وقت فطورهم طُرق الباب، ففتحه الإمام (عليه السلام). وكان يقف خلف الباب مسكين جائع، فأعطى (عليه السلام) رغيفه للفقير وتبعته في ذلك فاطمة (عليها السلام) فأعطته رغيفها، وهكذا فعل الأطفال، وفي الليلة الثانية تتكرر القصة، إلَّا أَنَّ الطارق كان يتيماً جائعاً، وتكررت القصة أيضاً في الليلة الثالثة، غير أنَّ الطارق كان في الليلة الثالثة أسيراً جائعاً.

لقد قدموا ـ ثلاث ليال متتالية ـ طعامهم الذي كان قد أُعدَّ لفطورهم إلى المسكين واليتيم والأسير. أجل ان هذا هو عمل آل البيت (عليهم السلام) فقد كانت جميع أعمالهم إلهية. وصلى الله على محمد وآله الطاهرين ولا حول ولا قوة إلَّا بالله العلي العظيم.

الموضوع الصفحة


الله
بسم الله الرحمن الرحيم